جمهورية مصر العربيّة
وزارة التربية والتعليم

البلاغة

للصفّ الثانى الثانوى

تأليف
يوسف الحمّادى   محمّد الشنّاوى

الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية

طبعة ١٩٧٧

جمهورية مصر العربيّة
وزارة التربية والتعليم

البلاغة

للصف الثانى الثانوى

تأليف
يوسف الحمّادى محمد الشنّاوى

الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية

طبعة ١٩٧٧

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

باسمه تعالى ، وفى هدى من نوره ورعايته وتوفيقه ، نقدمُ لأبنائنا طلبة الصف الثانى الثانوى، ولإخواننا المدرسين كتابَ البلاغة لهذا الصف .

والكتابُ يعرض المنهج المطور الذى أقرته الوزارة ، فى الصورة التى التقت عليها آراءُ الفنيين ممن وضعوا هذا المنهج ، وهى صورة تختلف إلى حد غير قليل عن الصورة التى كانت تُعْرَض البلاغة بها .

فقد كانت تعتمد على الإلمامة البلاغية الموجزة المركزة ، التى ألحقت بكتاب الأدب والنصوص ، وعلى الأمثلة المبتورة التى تُنتزَع من نصوصها انتزاعا بقطعها عن جوّها ، وعن المواقف التى سيقت فيها ؛ فإذا لم تف بعرض الفكرة وُضِعت أمثلة تكملها ، منها مايحقق غايته ، ومنها ما أفسده التكلف . وهوّن ذلك من شأن الدراسة البلاغية ، وأضعف الاهتمام بها ، فعجزت عن أن تحقق أهدافها فى تنمية قدرات التذَوق والنقد ، وإرهاف الحس بمواطن الجمال فى الكلام .

وكان لابد من تخطيط جديد للبلاغة ، يعيد إليها قوتها ، فجاء هذا المنهج المطور ، وكان من أهم ملامحه وسماته

ــ أن البلاغة استقلت بكتاب خاص بها ، ولكن ذلك لا يعنى أنها استقلت عن الدراسة النصية ، بل المقصود أن تظل هذه الصلة ، وتقوى عن طريق تطبيق ما يأتى به كتاب البلاغة من الحقـائق على مختلف الظواهر البلاغية التى تعرض فى أثناءِ دراسة النصوص .

ــ أن الكتاب يرجع بالبلاغة إلى موردها الطبيعى الصافى ، وهو الأدب ، الذى نشأت فى ظلاله وعاشت مرتبطة به ، ولا سبيلَ إلى دراستها دراسة صحيحة إلا من خلال نصوصه .

ولهذا حرص على أن تعرض ظواهرها ، فى ظلال نصــوص أدبية حقيقية ، يَفِى كل نص منها بالوقوف على هذه الظاهرة من ناحيتيها : الفكرية والشعورية ، بحيث لا ينتهى الطالب منها إلا وقد عرفها فتعمقها وأحسها فتذوقها .

ــ إنه ــ تحقيقا لذلك ــ رفض فكرة الأمثلة المبتورة المصنوعة التى تؤدى أكثر ما تؤدى إلى حفظ قوالب جامدة لا غناءَ لها فى تربية الحس والذوق .

ــ إنه يرعى الجو الدراسى للطــالب من ناحية ، ويرعى مستواه الفكرى ، واللغوى ، والتذوقى من ناحية أخرى ، ولهذا اختار له أكثر النماذج البلاغية من النصوص المقررة عليه ، أو مما يتصل بها من الآثار الأدبية فى العصر العباسى ، كما أنه اختــار من غــيرها ما يستطيع الطالب أن يتصل به فى غير جهد ولا عناء .

ــ ثم هو فى كل نص يعرضه على الطالب يعنى ــ غاية العناية ــ بألا يترك الفكرة إلا بعد توضيحٍ يجلوها ، ولايترك الجانب الشعورى

إلا بعد إلقاء الأضواء عليه ، ويحرص على عرض التعبير الأدبى ، والتعبير العادى الذى يؤدى فكرته ، وبذلك يتاح للطالب أن يفهم ، ويوازن ، ويتذوق ، ويحس بما هو جميل ، ويفرق بينه وبين غيره من مألوف الكلام ، أو مما هو مصنوع متكلف .

ـ والكتاب بعد ذلك امتداد لكتاب الصف الأول ، ينميه من ناحية المنهج ، ويسايره من ناحية الاتجاه إلى تطعيم البلاغة القديمة بالنظرة البلاغية الجديدة ، وهو فى ذلك يقف موقفا واعيا عادلا ، يستقى من القديم خير مافيه ، ومن الجديد أنضر ما جاء به .

ـ ولكى يحقق الكتاب غايته يؤمل من المدرس :

(ا) أن يأخذ بأيدى طلابه إلى فهم النماذج فهما صحيحا .

(ب) أن يقف بهم عند البواعث الشعورية وراء التعبير الأدبى ، ويعرض التعبير العادى إلى جانبه .

(ج) أن يدع لهم الفرصة المتأنية للتأمل والتذوق والوصول بأنفسهم إلى الحقائق البلاغية ، ولا يفرضها عليهم ، أو يحملهم على تحصيلها دون فهم وتذوق .

(د) أن يثبت الحقيقة البلاغية بالتدريبات المتصلة بها فى الكتاب ، وبما يأتى به هو من تدريبات أخرى شفوية وتحريرية ، من كتاب النصوص ومن غيره .

وبالله التوفيق .

المؤلفان

الأسلوب

مفهومه

(١)

كتب إبراهيمُ الصُّولىُّ إلى ابن عبد الملك الزيات يستعطفه :

« كتبتُ وقد بلغت المديةُ المحزَّ (١) ، وعَدَتِ الأيام علىَّ بعدَ عدواىَ بك (٢) عليها ، وكان أسوأ الظن أن تسكنَ فيوقتحركتها، وتكفَّ عند أذاتها (٣) ، فصرت أضرَّ علىَّ منها ، فكفَّ الصديق عن نُصرتِى خوفا منك ، وبادَرَ إلىَّ العدو تقربا إليك .. » .

(٢)

وكتب ابنُ زيدون وهو فى السجنِ إلى أبى الحزم بن جهَور أمير قرطبة رسالة طويلة ، يستعطفه فيها ، ومن هذه الرسالة :

« ياموﻻىَ وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، ومن أبقاهُ اللهُ تعالى ماضىَ حدِّ العزم ، وارىَ زَنْد الأمل (٤)، ثابت عهدِ النعمة . إن سلبْتنى — أعزَّك الله — لباسَ إنعامك ، وعطَّلتنى (٥) من حَلْىِ إيناسك ، وأظمأتنى إلى بَرود (٦) إسعافك ،

---

(١) المدية : السكين ، والمحز : موضـــع الحز أى القطع،وهومثل يراد به أن الأمر وصل الى غايته من الشدة .

(٢) بعد عدواى بك عليها : بعد أن كنت أستعين بك عليها .

(٣) أذاتها : أذاها .

(٤) الزند : ماتقدح به النار ، والمراد انك محقق الأمل .

(٥) عطلتنى : أخليتنى .

(٦) البرود : الماء البارد .

ولفضَت بي كفُ حياطتك ، وغضضتَ عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحسَّ الجمادُ باستنادي إليك ؛ فلا غَرْوَ قد يغَص (١) بالماءِ شاربه ، ويقتل الدواءُ المستشفِىَ به ، ويؤتَى الحَذِرُ من مأمنه ، وتكون منيةُ المتمنى فى أمنيّتِه ، والحيْنُ (٢) قد يسبقُ جَهد الحريص » .

كل المصائب قد تمرُ على الفتى ... وتهونُ غير شَماتةِ الحساد

(٣)

وقالَ محمدُ بنُ عبد الملك الزيات فى رثاءِ زوجته :

ألاَ منْ رأى الطفل المفارقَ أمَّهُ ... بُعَيْدَ الكرى عيناه تنسكبانِ (٣)

رأى كلَّ أم وابنَها غير أمه ... يبيتان تحتَ الليل ينتَجيانِ (٤)

وباتَ وحيدا فى الفراش تُجِنّهُ ... بلابلُ قلب دائمِ الخَفَقانِ (٥)

فلا تلحيانى إن بكيتُ فإنما ... أداوِى بهذا الدمع ما تريانِ (٦)

فهبنى عزمتُ الصبرَ عنها ؛ لأننى ... جليدٌ ، فمن بالصبر لابن ثمانِ ؟

(٤)

وقال البارودى فى رثاءِ زوجته :

لا لوعتى تدعُ الفؤاد ، ولا يدى ... تَقوى على ردِّ الحبيب الغادى (٧)

---

(١) يغص : يشرق .
(٢) الحين : الهلاك :
(٣) تنسكبان : تنصب دموعهما .
(٤) ينتجيان : يتناجيان .
(٥) تجنه : تغطيه . بلابل : وساوس وهواجس .
(٦) لاتلحيانى : لاتلومانى .
(٧) اللوعة : حرقة الحزن .

يادهرُ فيم فَجَعْتَنى بحليـلة كانت خلاصةَ عُدتى وعتادى ؟
إن كنت لم ترحمْ ضنَاى لبعدها أفلا رحمتَ من الأسى أولادى ؟
ومن البلية أن يُسام أخو الأسى رَعْى التجلد وهو غيرُ جماد(١)
ولَهى عليك مصاحبٌ لمسيرَتى والدمعُ فيك ملازم لفـؤادى

التوضيح

ارجع إلى النماذجِ المتقدمة تجدْ أن الرسالة الأولى تمثلُ موقفَ استعطاف ، وقف فيه الصولى يحاولُ أن يترضّى محمدَ بنَ عبد الملك الزيات ، المعروفَ بجبروته وبطشهِ ، ومكانهِ من الخليفةِ المتوكل العباسىِّ بعد أن تولى الوزارةَ له .

لقد كان الصولى يستعدُ بعطف ابن الزيات ، ويستنصرُ به على الناس والأيام ، ثم تحوّلَ عنه ابنُ الزيات ، فخافَه الناس وجاملوه ، ودفع الخوف أصدقاءَ الصولىِّ أن يبتعدوا عنه ، كما دفعت المطامعُ أعداءَه أن يتجرءُوا عليه ، ويبادئوه بالعداوة .

***

انظر إلى طريقة الكاتب فى التعبيرِ عن فكرته وشعوره ترَ أنه دخلَ على الفكرة ، فعرضَ الموقفَ الرهيبَ الذى يواجهُه ، فى مثل سائرٍ يصورُ الخطر ، وقد انتهى إلى غايته : « بلغت المدية المحز » .

ثم انتقلْ إلى عرض ما يلقاه من ابنِ الزيات ، ومن الناس الذين

---

(١) يسام رعى التجلد : يحمل عليه .

تخافوه ، وجاملوه ، تطالعكَ كلماتُ الكاتب من وحْيٍ عاطفة ملتاعة ، ومصارحة مُرّة : « كان أسوأ الظن أن تسكنَ في وقتِ حركتِها . صرت أضرُّ عليَّ منها » ، وتبدو هذه المرارةُ واضحة في اختيار اسمي التفضيل : « أسوأ . أضرّ » ، كما تبدو في التأكيد بالحرف (قد) ، وبالتراكيب المترادفة في المعنى : « تسكن في وقت حركتها . تكفّ عند أذاتها » ، وبالتراكيب التي تأتلف في فكرة واحدة ، مع مايبدو فيها من تَضَادّ في المعنى : « كفّ الصديقُ عن نُصرتي خوفا منك . بادر إليَّ العدو تقربا إليك » .

وألفاظُ الرسالة كما ترى تؤدّي معانيَها في وضوح ، وتأتلفُ في سياق له وقعُه القوي في النفس بائتلاف كلماته ، وما يتخلّله من وقَفات لها جرْس قوى .

والتعبيرُ الحقيقي هو السائدُ في الرسالة ، ولكنك ترى إلى جانبه بعضَ التعبيرات الخيالية ، الفيّاضة بالشعور : « بلغت المديةُ المحزّ . تسكنَ في وقت حركتها » .

وهكذا ترى نمطا من الأسلوب ، يمتازُ بالقَصد إلى الفكرة ، والمصارحة بها ، وبالتركيز في العبارة ، مع قوةٍ ووضوحٍ .

***

وفي النصِّ الثاني لابن زيدون ترى موقفا قريبا من الموقف الأول ؛ فقد كان ابنُ زيدون وزيرًا لابن جهْور أميرِ قُرطُبة ، وكان مقرَّبا إليه ، أثيرا عنده ، ثم غَضِبَ عليه ابنُ جهور ، وألقى به في السجن ، وحاول ابنُ زيدون أن يستدر عطفَه ، وينتزعَ من نفسه ماعلقَ بها ،

فبعث إليه برسالة طويلة ، منها هذا المقطعُ الذى نَعرِضُه عليك .

وفيه — كما ترى — يتودَّد إلى ابن جهور ، ويذكِّره إخلاصَه له ووفاءه بعهده ، وصدقَه فى خدمته صدقا أحسَّ به الناس جميعا ؛ لأنَّ الجمادَ — فيما يذكر — قد أحسَّ به .

***

انظُر إلى ابنِ زيدون : كيف يعبِّرُ عن فكرته وشعوره ؟ إنه يبدأ بنداءِ ابنِ جهور ، ولكنه لايناديه باسمه ، بل يجعلُه مولاه وسيدَه ، ومناطَ وُدِّه ، وركنَه الذى يعتمد عليه ، وذخره الذى يعتَد به ، ويُطْنِبُ فى ذلك ماشاءَ أن يطنب ؛ ليجتذبَ سمعه إليه .

ثم يُتْبِعُ نداءَه له دعاء يدعو فيه أن يظلَّ حاسمَ الإرادة ، محققَ الأمل ، وأن يكونَ دائما مصدرًا للإنعام ، وهو دعاء يلتقى مع مايقصد إليه من استمالة قلبه .

وبعد هذا التمهيد يعرِضُ مالقِيَ منه فى مجاملة بالغة ، فهو حزين ، ولكنه لا يذكرُ السجنَ وآلامه ، والحريةَ ومرارةَ فقدها ، بل يأسى ؛ لأنه حُرِمَ القربَ من ابن جهور ، والائتناس به ، والشعورَ بأنه موضعُ نصرته ، وحياطته ، وحمايته . وهنا يذكِّره وفاءَه البالغَ له ، ثم لا يلومُ ولا يعنِّفُ ، بل كأنه يلتمسُ مَعذرةً لما أصابه منه ؛ لأن ما أصابه — على غرابته — قد يقع فى الحياة .

وإذا تأملْتَ وجدتَ أن المعنى الواحدَ يؤدَّى بأساليب متعدِّدة :

« لاغَرْوَ قد يغَص بالماء شاربُه .. الحيْن قد يسبق جَهدَ الحريص »،

ووجدت أن الكاتب حريص على أن يسوق المثل مستدلا به : « قد يغَصّ بالماءِ شاربُه » . « يؤتى الحذِرُ من مأمنه » ، وهو حريص أيضا على أن يستدلَّ بالشعر ، أو يقتبس منه ، فقوله : « بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك » ، مأخوذ من قول المتنبي :

أنا الذي نَظَرَ الأعمى إلى أدَبِي   وأسمَعَتْ كلماتي من به صممُ

والعبارة مبنية على الجملِ المترادفة ، التي تسترسلُ حينا ، وتنزع إلى السجعِ حينا آخر ، كما في قوله : « نفضتَ بي كفَّ حياطتك . غضضتَ عني طَرْفَ حمايتك . سمع الأصم ثنائي عليك . أحس الجمادُ باستنادي إليك » ، كما أنها تعتمِدُ على التعبيرات الخيالية ، وأكثرُها صور قديمة ، أوردها الكاتب بنصّها ، أو بشيء من الجدة ، مثل : « حَلْي إيناسك ، غضضْتَ عني طرف حمايتك » .

وهكذا ترى طَرِيقةً في التعبير ، تعتمد على التمهيدِ للفكرة ، والتأني لعرضها ، والإطناب في العبارة ، والاعتماد فيها على الترادُف ، وعلى المأثور من الصوَر والأمثالِ ، والشعرِ ، وعلى المراوحة بين الترسلِ والسجعِ .

***

انتقِلْ إلى النموذجين : الثالث والرابعِ تجدْ أنهما في موضوعٍ واحد أيضا ، فكل من : ابن الزياتِ والبارودي يرثي زوجته .

ولكنَّ الزوجةَ كادت تتوارى في رثاءِ ابن الزيات ، وظهر التركيز أكثرَ ماظهرَ على الابنِ الصغير ،الذي لم يتجاوز عمره ثمانيةَ أعوام .

ففى لوعة محرقة يصوِّر الشاعرُ حالَ ابنه الذى يهبُّ من نعاسه ، فتنسكبُ عيناه حزنا على أمه التى لايجدها إلى جانبه ؛ لتناجيه وتناجيها، كما تصنع كل أم وابنها حينَ يظلُّهما الليل ؛ فاذا نام كان وحيدا فى فراشه لا يحوطه إلا قلبُ أبيه ، وهو قلب دائمُ الخفقان ، كثيرَ الوساوس والهَواجس .

وعلى نمط الشعرِ التقليدى القديمِ يتخيلُ الشاعرُ صاحبين له يلومانه على جزَعهِ ، ولكنه يعتذرُ بأنه قد يستطيعُ لجَلَدِه أن يصبر على فقد زوجته ، ولا يستطيعُ أن يتحمل مأساةَ هذا الابن .

وإذا تأملتَ رأيتَ الشاعر يعتمدُ على الحوار فى عرض مشاعِره وفكرته ، فهو يبدأ بالتساؤلِ عمن رأى ابنَه بُعيدَ الكرى ، كما أنه يتخيلُ بينَ الناس من يلْحاه لجزعه ، ويعتذر عن هذا الجزع . وفى التعبير بهذا الأسلوب الإنشائى حَيَوية ، وحركة ، وقوة تأثير ، ورأيتَ أيضا أنه يعتمد على التصويرِ الواقعىِّ الرائع بدقته ، ومع هذا تجدُ من التصوير الخيالىِّ قوله : « عيناه تنسكبان . تجنه بلابلُ قلب دائم الخفقان » .

وهكذا ترى لوحة فنية يظهر فيها الابنُ ظهورا واضحا ، ولا تَكاد تظهرُ فيها الأم ، وترى التصويرَ السائدَ فيها هو التصوير الواقعى ، أما التصويرُ الخيالى فقليل ، كما أنك تجد أسلوبا يعتمدُ فيه الشاعر على الحوار والإنشاءِ ؛ ليشركَهُ الناس فى مأساتِهِ .

***

أما فى نص البارودىِّ فتطالعُك حرقته قويةً سافرة لفقد زوجته ،

فهو بين لوعة لا تفارق فؤادَه ، ويد عاجزة أن تستردَّ هذه الزوجةَ من بين براثنِ الموت . وهو يتوجه إلى الدهر حزينا عاتبا ؛ لأنه انتزعَ منه إنسانة كانت كلَّ شىء فى حياته ، وكان عليه أن يرحم ضنى الشاعر لفقدها ، أو أسَى أولادها عليها .. وينتهى إلى أنه لا يستطيعُ الصبرَ عنها ، وأن حزنَه سيستمر ، ودمعَه لَنْ يجف .

وفى هذه اللوحةِ ترى أن الزوجةَ قد ظهرت ظهورا واضحا ، وظهر الأولاد بدرجة أقل ، وأن الالتياعَ الذى كان القدماءُ يتحرجون منه هو العنصرُ السائدُ فى هذه اللوحة .

وترى أن الأسلوبَ — فيما عدا البيتين الثالث والرابع — هو الخبرى ، وأنه لا يعدو صرخات حزينة ، يتخللُها من الصورِ الخيالية قوله : « يسامَ رَعْىَ التجلد . وَلهى عليكِ مصاحب لمسيرتى » .

ومن الألفاظ المرتبطة بحياته الحربية : « عُدَّتى . عتادى . مَسِيرة »

وهكذا ترى نمطا آخرَ من التعبير عن الشعورِ بفقد الزوجة ، فيه الإحساسُ القوى بها ، والالتياعُ الصارخُ عليها ، وفيه المعانى الفطْريةُ القريبةُ ، والألفاظُ المتصلةُ بحياة الشاعر .

***

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

١ — أن الأسلوب هو طريقةُ الأديب فى التعبير عن أفكاره ومشاعره .

٢ — أن لكل أديب أسلوبه فى التعبير عن نفسه ، ونهجه فى التفكير، والتصوير ، ولختيار الألفاظ ، وصياغة العبارة .

٣ — من الطبيعى أن تختلف أساليبُ الأدباءِ ؛ لأن الأسلوبَ وليدُ الشخصية ، والبيئة ، والثقافة ، والعصر ، وغيرها من المؤثرات التى تؤثر فى الأديب ، وهى تختلف من أديب إلى أديب .

وفى النصوص الأدبية التى درستها وتدرسها ما يجلو لك هـذه الحقائق .

***

انواع الأسلوب

(١)

لنشأت التغلبىّ وقد وقف يشاهدُ حركةَ العملِ فى بناءِ السد العالى :

« عشراتُ الألوف يعملون فى قَيْظ الظهيرة ، يشقون الصخورَ ، ويعتلُون هامات الجبال ، ويحرّكون الآلات الجبارة ، غيرَ مبالينَ بحرٍّ أو عرق ، وكأن جَحيمَ القيظ قد صارَ عليهم بردا وسلاما ، بل كان غلالةً من الإيمان العظيمِ ، والعزيمة الصادقة — تحجبُ عنهم عتوَّ الطبيعة وقسوتها . إن الذين يزورون السد العالىَ من أىّ بلد من بلاد الدنيا يَحنُون رءوسَهم إجلالا لهؤلاء الذين عمِلوا فى صمت وإخلاص ؛ ليُشَيِّدُوا هذا الصرحَ العظيمَ دليلا على انتصار

الإرادة العربية فى نضالِ العروبةِ من أجل الحياة الكريمة .

(٢)

من استطلاع صحفى بمجلة « العربى » :

من السهلِ القولُ بأن السدَّ العالىَ عملٌ معجز ، ولكن إذا ترجَمنا هذا الإعجازَ إلى لغة الأرقام كان هذا تأكيدا وتثبيتا للمعجزة.إن أقصى ما توصَّلَ إليه الأمريكيون والكنَديون من أعمال الحفر فى مشروع شلالات « نياجرا » كان (٣٥٠٫٠٠٠) ثلثمائة وخمسين ألف مترٍ مكعب فى الشهر ، وإن أقصى رَقَم للحفر فى مشروع براتزك فى روسيا كان (٣٤٠٫٠٠٠) ثلثمائة وأربعين ألف متر فى الشهر ، وإن الدولَ الكبرى تعتز بهذه الأرقام ، وتَعدها دليلاً على العملِ المنظَّم الجبار الذى قامت به ، وتسجِّلها على أنها أقصى أرقامٍ قياسية وصل إليهـا العالمُ كلُّه .

وقد كان العمالُ بالسد يحفِرُون فى صُخُور الجرانيت ، أقسى وأصلب الصخور ، ومع ذلك وصلوا إلى حفر (٥١١٫٠٠٠) خمسمائة وأحدَ عشرَ ألف مترٍ مكعب من الصخور فى الشهر ، يحدوهم الإيمانُ بخطورة العمل من أجل رفاهية الأجيالِ القادمة .

(٣)

من حديث عن السد :

نظرت مصرُ إلى النيلِ فوجدته يقذف بنفسه منتحرا فى البحر

المِلْح ، بعد صراعٍ عنيف ، ورحلة طويلة تدومُ مائة وخمسين يوما يقطعُ خلالَها ستةَ آلاف كيلو متر من خط الاستواءِ إلى مصبه فى رشيد ودمياط ؛ ليُلقىَ فى البحر سنويا مقاديرَ هائلة من المياه تذهبُ سدى ، والأرضُ الطيبةُ تشكو الظمأَ وقلةَ الماءِ .

وهو بعد ذلك لا يثبُتُ على حال واحدة فى جميع السنين ، فمرةً يأتى شحيحا ضعيفا ، فيقتُلُ الزرْع ، ومرة يأتى مُزْبدا هائجا غزيرا ، فيُغرقُ الزرع .

ومنْ هنا جاءَت ضرورةُ السيطرة على مجرى النهر الجبار ، وإخضاعه لإرادة الإنسان .

التوضيح

قدمنا لك ثلاثا من القطع ، تستطيعُ أن تتبين فيها معالمَ لأنواع الأسلوب ، والسمات الخاصة بكلٍّ منها :

ففى نصِّ التغلبىِّ وقف الكاتبُ مبهورا أمامَ حركة العملِ فى بناء السد العالى ، فنقلَ إليك فى الفقْرَةِ الأولى صورةَ آلاف العمال يكدحون فى أعالى الجبال ، يحرِّكونَ الآلات الجبارة ؛ لتشقَّ الصخورَ العاتية ، والجو قائظ ملتهب ، ولكنهم لايبالون قَسْوَته ؛ لما يملأُ قلوبَهم من العزيمة القوية ، والإيمانِ الصادق .

ونقل إليك فى الفقرة الثانية صورةً أخرى ، تمثلُ إعجابَ الزائرين من كل أنحاءِ العالم بأولئك الكادحين فى إخلاص وصمت ، ليشيِّدوا السدَّ العظيم ، فيشمَخَ مَعلمنا انتصارُ الإرادة العربية ، والعملِ العربى فى سبيل الرخاءِ والعيش الكريم .

وأَنت ترى الكاتب قد توخَّى أَن يَنقلَ إلينا شعوره بالتعاطف

مع أولئك العمال في كدحهم الدءوب المخلص ، وبالإعجاب بما امتازوا به من القوة والصلابة ، وإحساسه بالتقدير العميق لعملهم المثمر .

ولم يلجأ الكاتب في نقل أفكاره ومشاعره إلى الأسلوب العادي بل إلى أسلوب ذي ملامح وسمات ساعدت على نقل فكره ممزوجا بعاطفته .

فاستعان بعدد من الصور والأخيلة المعبرة المؤثرة ، ومنها :

(يعتلون هامات الجبال . كأن غلالة من الإيمان العظيم تحجب عنهم عتو الطبيعة . كأن جحيم القيظ قد صار عليهم بردا وسلاما ، يحنون رءوسهم إجلالا) .

وحرص على اختيار الألفاظ ذات الإيحاء القوى .

ومن ذلك : (عشرات الألوف . قيظ . الجبـــارة . جحيم . عتو . قسوة .)

كما حرص على أن يتألق في تأليف عبارته على نسق يوفر لها هذا الإيقاع الموسيقى المؤثر الذى تحسه في ائتلاف الكلمات ، وفي تسلسل الجمل والتراكيب ، ومثل هذا الأسلوب يسمى الأسلوب الأدبي .

***

وفي الاستطلاع الصحفى عن السد العالى ترى حديثا يبدأ بفكرة : أن السد عمل معجز ، ثم بإثبات هذه الحقيقة ، وتأكيدها بلغة الأرقام ، التى لا مجال في دلالتها للتفاوت والاختلاف ، فأعمال الحفر في السد تحسب بمقدار الركام الذى يتخلف عنها في « شهر » واحد ، وهى بهذا المقياس تفوق أعمال الحفر التى

سجلتها دولُ العالمِ الكبرى في المشروعات الإنشائية المماثلة ، كشلالات « نياجرا » في أمريكا ، ومشروع « براتزك » في روسيا ، مع أن العملَ في منطقة السد قامَ على الحفر في صخور الجرانيت ، وهي من أقسى الصخور وأصلبها .

وإذا رجعت النظرَ في أسلوب هذه القطعة ، ووازنته بأسلوب النص الأول وجدت أنهما مختلفان ، وأن ملامحهما متغايرةٌ ، مع أن موضوعَهما واحد .

فالغرضُ هنا عرضُ الفكرة ، وإثباتُها ، والإقناع بها ، لا التأثيرُ بلونٍ معينٍ من المشاعر والأحاسيس ، والعبارةُ تعتمدُ في توصيلِ الفكرة على لغة الأرقام ذات الدلالة الدقيقة الثابتة .

كما تعتمدُ على الترتيب الذي يساعدُ على استيعاب الحقائق ؛ فقد عرضتَ الفكرةُ أولا ، ثم أوردت الأدلةُ على صحتها من المشاهدات ، والتجارب المماثلة مؤيدة بالأرقام .

وفي سبيلِ أداءِ الفكرة أداءً دقيقا محدودا خلت العبارةُ من الأخيلة والصور البلاغية ذات الإشعاع الوجداني ، والألفاظ — كما ترى — مستخدمةٌ في معانيها الحقيقية ، وبناءُ الجمل والتراكيب هو البناءُ العاديُّ المألوف .

ومثل هذا الأسلوب يسمى الأسلوب العلمي .

***

والقطعةُ الثالثة حديثٌ عن السد أيضاً ، يوضحُ بعض الأسباب التي دفعت إلى بنائه ؛ فهو وسيلةٌ للسيطرة على مسيرة النهر ، وتنظيم مائه ، وحسنِ الانتفاعِ به ؛ حتى لا تضيعَ منه سُدًى مقاديرُ هائلةٌ في البحر ، والأرض من حوله في حاجة إلى كل قطرةٍ منها ، وحتى

لا يُرَوِّع أهلَ الوادى بين الحين والحين بمفاجآت فيضانه الشحيح ، أو فيضانه الغامر المدمِّر .

ولو عاودت النظر فى أسلوب هذه القطعة ، ووازنته بالأسلوب فى النصين السابقين لأدركت أنه يجمعُ ملامحَ من هذا وذاك :

فالطابَعُ الفكرىُّ يغلب عليه ، وفيه اعتمادٌ على الأرقام فى توضيح الحقائق ، كالذى تراه فى بيان المدى الزمنىِّ للرحلة التى يقطعها النهرُ من منبعه إلى مصبه ، والمدى المكانىِّ لمجراه من خط الاستواءِ إلى البحر .

وأكثر الألفاظ مستخدمةٌ فى معانيها الحقيقية ؛ لتعين على أداءِ الفكرة فى وضوح .

وهذا — كما عرفتَ — من سمات الأسلوب العلمى .

ولكنك — إلى هذا — ترى فى النصِّ محاولات لصَبْغِ أسلوبه بالصبغة الأدبية ؛ ففيه بعضُ الصور البلاغية ذات الإيحاءِ الوجْدانى ومنها : (يقذف بنفسه منتحرا فى البحر) ، (صراع عنيف) ، (الأرض تشكو الظمأ) ، (يأتى شحيحا) ، (أتى مزبدا هائجا) .

وفيه دلائلُ على التأنقِ فى صوغ العبارة ، تراها فى ائتلاف الكلمات ، وتسلسل الجمل والتراكيب ، وفى هذه المطابقة الطبيعية المستَحْسنَة بين شحِّ النهر وضعفه حينا ، وإزباده وهياجه حينا آخر . وهذا — كما عرفت — من سمات الأسلوبِ الأدبى .

ولذلك يسمى هذا الأسلوب (الأسلوبَ العلمى المتأدّب) .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين :

١ ـ أن الأسلوبَ يتنوعُ بحسب السمات الغالبة عليه ، فمنه : الأدبى ، والعلمى ، والعلمى المتأدب .

٢ ـ يمتاز الأسلوبُ الأدبى بأن الفكرَ فيه ممتزجٌ بالعاطفة ، وهدفه الإقناع والتأثير معا . وهو يستعينُ بالأخيلةِ والصور لنقل أحاسيس الأديب ومشاعره إلى القارىء والسامع ، كما يبدو فيه الاهتمامُ باختيار الألفاظ ، والتأنق فى تأليف العبارة وتنسيقها ؛ بحيث يخرج الكلامُ مشرقا ممتعاً ، له وقعه فى النفس ، وجرسه فى السمع .

٣ ـ ويمتاز الأسلوب العلمىُّ بأنه يقصد إلى بيان الحقائق ، وإيصالها إلى الأذهان فى وضوح .

والألفاظ فيه دقيقة الدلالة ، مستخدَمةٌ فى معانيها الحقيقية ، ومن سماته :

الترتيبُ ، والتقسيم ، والاستناد إلى الأرقام والمصطلحات ، والملاحظة والتجربة .

٤ ـ أما الأسلوب العلمىُّ المتأدب فيغلب عليه الطابع العلمى ، ولكنه يأخذ من سمات الأسلوب الأدبى بنصيب ؛ لأنه ينقل الحقائقَ ممتعة مؤثرة ، مع دقتها ووضوحها .

عناصر الأسلوب الأدبى

(١)

للبحترى فى وصف الربيع :

١ ـ أتاكَ الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلَّما

٢ ـ وقد نبه النيروزُ فى غسقِ الدجى
أوائلَ وردٍ كُن بالأمس نُوَّما

٣ ـ يُفتّقها برد الندى فكأنه
يبثُّ حديثا كان قبلُ مكتّما

٤ ـ فمن شجر ردَّ الربيع لباسه
عليه كما نشَّرْت وشْيا منمنما

٥ ـ أحلَّ فأبدى للعيونِ بشاشةً
وكان قَذًى فى العين إذ كان محرما

٦ ـ ورقَّ نسيم الريح حتى حسبته
يجىء بأنفاس الأحبة نُعَّمَا

***

(٢)

ولأحمد أمين فى الربيع (بتصرف) .

---

(٢) النيروز : اول السنة الشمسية عند الفرس ، وغسق الدجى : ظلمة الليل .

(٤) وشيا منمنما : الوشى النقش ، والمنمنم المحسن .

(٥) أحل : اكتسى بالأوراق بعد أن كان عاريا . محرما : المرادهنا انه كان عاريا من أوراقه .

« هذا أنت أيها الربيع . أقبلتَ فأقبلتْ معك الحياة بجميعِ صنوفها وألوانها : النبات يَنْبُتُ ، والأشجار تورق وتزهِرُ ، والقُمْرِيُّ يسْجَعُ ، والحمامُ يَهْدِلُ ، والغَنَمُ تَثْغُو (١) ، والأغصانُ تتمايلُ .

كلُّ شيءٍ يشعرُ بالحياة ، ويمتلِيءُ بالحياة ، فإن كان الزمانُ جَسَدًا فأنت رُوحُه ، وإن كان عُمْرًا فأنت شبابُه .

جعلت الدنيا ملء العيون بما أبدعتَ من ألوان ، وما مَيَّلْتَ من أغصان ، وما حَكْتَ (٢) من وَشْيٍ ، وما صَبَغْتَ من جمال .

وكما جعلتَ الدنيا ملءَ العينِ جعلتَها مِلءَ السمع ؛ فرأت الأطيار ما وشَّيته في أرضك ، فحرَّكَ أشجانَها ، وأطلق أصواتها ، وجعلت منها موسيقا مختلفةَ النغمات ، متعددةَ الأصوات . ثم هذا أنت قد ملأْتَ الجوَّ عطْرًا بأزهارك الطيبة ، وثمارك العَطِرة ، فأنعشت النفوس ، وبعثْتَ الأمل .

ليت الزمانَ كان ربيعاً كلَّه ، إذن لتذَوَّقَ الناسُ الجمالَ كما ينبغي ، فكان كلُّ ما يصدُرُ عنهم جميلاً لا قبحَ فيه ، خيرًا لا شرَّ فيه ، وهل الفضيلة والحقُّ إلا جمالٌ كجمالِ الربيع !؟ »

التوضيح

تأمل النموذج الأول ، وهو للبحتريِّ في وصف الربيع تجد أن الشاعرَ يصوِّرُ الربيعَ زائرًا أهلًا يختالُ في بشاشة وبهجة ، وقد ازدهاه جماله ، فكاد من فرط حسنه يَنْطق ، ومرَّ النيروزُ

---

(١) تثغو : الثغاء صوت الشاة .
(٢) حكت : نسجت .

تحتَ ستارِ الظلام ببواكيرِ الورود النائمة فأيقظها ، ونزل عليها النَّدى ففتَّحها ، وأذاع ما كان مكتوما من عَبيرها ، وازدهى الشجر بأوراقه الخضْر ، تتخلّلها الأزهار بألوانها المختلفة ، فكأنما اكتسى أثوابا مُوَشّاةً بالنقوش الجميلة ، وكأنّما أحلّ بعد إحرام ، وهبت الأنسامُ بليلةً عَطِرة ، كأنما تَحْمل لرقتها وأريجها أنفاس الأحبّة المترَفين المنعّمين .

وفى هذا النموذج ترى الشاعرَ منفعلاً بجمالِ الربيع ، مأخوذاً بفتنته وسحره ، وقد جاشت نفسُه بهذا الشعور ، فصوَّرَه فى هذه اللوحة الجميلة .

وفيها ، كما ترى ، عنصرٌ فكرىٌ يتمثلُ فى مجموعة المعانى التى ساقها الشاعر : من إقبالِ الربيع بجماله ، وتفتح الورود ، وانتشار عبيرها ، واكتساء الشجر بعد عُرْى ، ورِقة الأنسام ، ولطف مسراها

ولكن هذه المعانى لم تَرد فى تصوير الشاعر مجردةً معروفةً ، بل امتزجت بها عاطفته ، فأضفَتْ عليها من حسّه وشعوره دلالات جديدة لم تَكُنْ لها ؛ فقد حركت خياله ، فانطلق إلى مجموعةٍ من الصور ، تعبّر عن هذه العاطفة ، التى استباها الربيعُ بجماله وحيويته وبهجته .

ومن هنا يأتى العنصرُ الثانى فى اللوحة ، وتراه واضحا فيما تخيّله الشاعر : فالربيع زائرٌ طَلْقُ المحيا ، يختالُ من فَرْط حسنه ، والنيروزُ يمرُّ بالورود النائمة ؛ ليوقظها ، والعبيرُ يفوح من الورود كما يذيعُ السرَّ الذى كان مكتوما ، والشجرُ يزدهى بحلله المنقوشة ، ويحلُّ بعد إحرام ، والنسيمُ ينطلق رقيقا عطرا كأنفاس الأحبة المنعّمين .

وذلك كله ينسابُ فى عبارةٍ انتقى فيها الشاعرُ الألفاظ التى

تتلاءم مع الجو النفسيّ المسيطر عليه : « الطلق ، يختالُ ، ضاحكا ، الحسن ، يفتقها ، مكتّما ، نشّرتَ ، بشاشة . رَقّ .. »

وقد صاغ الشاعر هذه الألفاظ في نَسَقٍ من التعبير له تأثيرُه في النفس ، فقد آثر الخطابَ في « أتاك » ؛ ليعقدَ صلةً بين السامع والربيع ، وجاءَ بهذه الأوصاف المتتابعة المتدرجة : « الطلق . يختال . ضاحكا من الحسن . كاد أن يتكلما » ؛ ليستثير القارىءَ شيئا فشيئا ، حتى يَبْلُغ بهذه الاستثارة غايتها .

وأتى في البيت الثاني بلفظة (قد) ؛ ليؤَكدَ فكرته ، كما أتى بالفعل « كنّ » و « نوّما » ليُشَخِّص الورود ، ويضفي عليها صورة إنسانية ليست لها ، وجاءَ في البيت الخامس بمطابقة تبين الفرقَ الكبير بين بشاشَة الشجر حين اكتسى بورقه وزهره ، ومنظره الكئيب وهو عار من ثيابه .

وإلى هذا ترى أن تسلسلَ العبارة ، وانسيابَها ، وانتهاءَ القافيةِ بالألف تُعطيك جرساً موسيقياً فيه حيويةُ الربيع وبهجته .. ومن هنا يأتي العنصر الثالث ، وهو النسق التعبيري .

وفي النموذج الثاني لأحمد أمين ترى الكاتبَ يصفُ الربيعَ أيضا ، فيصورُ الحياةَ تَتقدَّم بقدومه ؛ فالنباتُ يطلُع ، والشجرُ العاري يورقُ ويزْهرُ ، والغصونُ تتمايلُ ، والطيور تنطلقُ بالغناءِ ، وكلُّ شيءٍ يمتلئَ حيويةً ، ويجعل الربيعَ — بذلك — روحَ الزمان وشبابَه .

وقد جعلَ الكاتب الربيع ملءَ العيون ؛ بما أبدعَ من مشاهدَ فاتنة ، وملءَ الأسماع بما أطلق من أغانيّ وأغاريد ، وموسيقا

متعددة الأصوات والنغمات ، وملءَ النفوس بما تنشرُ من عطرٍ وعبير .

وأخيرا يتمنى أن لو كان الزمانُ كلُّه ربيعا ؛ لتتحولَ الدنيا كلُّها جمالا من جماله ، وخيرا من خيره .

وفى هذا النص يُطالعُك إحساسُ الكاتب ، وقد استثاره موكب الربيع بزينته ، ويطالعك ما ساقه من فكرٍ عن الربيع : « حيوية الطبيعة فى هذا الفصل . الجمال فى كل شىءٍ : فيما تقعُ عليه العينُ ، وما تسمعُه الأذنُ ، وما يَشَمُّه الأنف . أمنيَّةُ الكاتب فى أن يكون الزمانُ كلُّه ربيعا » .

وترى فى النص صورا متعددةً ساقها الكاتبُ تعبيراً عن شعوره : « أقبلتَ فأقبلتْ معكَ الحياة . إن كان الزمانُ جسداً فأنت روحُه ، وإن كان عُمْراً فأنتَ شبابُه . ما أبدعت من ألوان . ما صغتَ من جمال . حرك أشجانَها . جعلَ منها موسيقا مختلفةَ النغمات » .

كما ترى نَسَقا خاصا فى اختيار الألفاظ التى تنقلُ إليك جَوَّ الربيع بفتنته ، وفى صياغة العبارة التى آثر فيها الكاتب أن يقفَ من الربيع موقفَ من يخاطبُه ، ويتحدثُ إليه ، وأن يسوقَ الجملَ قصيرةً متتابعةً ، تنقلُ إليك — بترادُفها ، وجَرْسها المتلاحق — موكبَ الربيع فى حيويته وبهجته .

وربما توهمْتَ من تحديد هذه العناصر أنها منفصلة ، ولكن الحقيقةَ أنها مترابطة متفاعلة ؛ فاللغةُ مرتبطة بالفكر ، والصورُ المعبرةُ تتاجُ العاطفة الصادقة بما تستثيره من خيال ، والجرس

الموسيقى أثر من آثار الصياغة ، وهو فى الوقت نفسه مرتبط بالعاطفة ، والعبارة وعاءُ ذلك كله .

***

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

١ ـ أن عناصر الأسلوب الأدبى هى :

ـ الفكرةُ الممتزجةُ بالعاطفة .

ـ الصور .

ـ النسقُ التعبيرىُّ بألفاظه ، وتراكيبه ، وموسيقاه

٢ ـ هذه العناصرُ كلُّها مترابطةٌ ، متفاعلةٌ فى العمل الأدبى ، وتقسيمُها ليس إلا لمجرد التوضيح ، وتيسير دراسة النص وتذوقه .

***

تمرينات

(١)

لطه حسين فى مولد الرسول :

« يشرق الفجرُ ، وتبسطُ الشمسُ رداءَها النقىَّ على بطحاءِ مكةَ ، وما يحيطُ بها من الجبال ، ويرتفعُ الضحى ، ويضطربُ الناسُ فى أمورهم ، وقد قضَوْا ليلا جاهلاً غافلا ، لم يشعروا فيه بشىءٍ ، كأن لم يكن فيه أى شىءٍ ، ولو قد كشفَ عنهم الغطاء ، ولو قد أُزيلتْ عن قلوبهم الحجبُ لرأوا وسمعوا ، ولكن الله قد جعلَ لكل شىءٍ قدْراً ؛ فهو يظهرُ آياته لمن يشاءُ ، ويخفى آياته عمن يشاءُ . وعبدُ المطلب جالسٌ فى الحجْر ، وحوله أبناؤه وجماعةٌ من قريش قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، وهو يسمعُ إليهم بأذنيه ، ويعرضُ عنهم بنفسه ، ويفكرُ فى فقيده الذى لا يستطيعُ أن ينساه . وإنه لفى ذلك ، وإذا البشيرُ يقبلُ عليه مسرعا ، حتى إذا انتهى حياه ، وقال : لقد وُلدَ لك غلام ، فهلم فانظر إليه ، فلا يسمعُ هذه البشرى حتى يحسَّ أن الله قد أخلفَهُ عن فقيده (عبد الله) ، ورفقَ به فى مصابه ، وادخرَهُ له عزاء عن محنته (*) » .

***

(١) ما نوع الأسلوب فى هذه القطعة ؟

(ب) بم يمتاز من حيث :

ــ اختيارُ الألفاظ .

(*) من كتاب «على هامش السيرة» .

ـ صياغةُ العبارة .

ـ الجرسُ الموسيقى .

ـ استخدام التعبير الحقيقىِّ والخيالىِّ

(٢)

للجاحظ على لسان أحد القناصين :

« ما أعْجبَ أمر الثعلب ! يفصلُ بين الكَلْب والكلاَّب ، فيحتالُ للكلاَّب بما يعلم أنه يجوزُ عليه ، ولا يحتـالُ مثلَ تلك الحيلة للكلب ؛ لأن الكلبَ لا يَخْفَى عليه الميِّت من المغشىِّ عليه ، ولا ينفعُ عنده التماوت ...

هجمتُ على ثَعْلب فى مضيقٍ ، ومعى بُنَىٌّ لى ، فإذا هـو ميتٌ منتفخٌ ، فصدَدْتُ عنه ، فلم ألبَثْ أن لَحِقَتنى الكلابُ ، فلما أحسَّ بها وثب كالبرق ، بعد أن تَحايَدَ عن السنن (١) ، فسألت عن ذلك ، فإذا ذلك من فعله معروف ، وهو أن يَسْتلقى ، وينفُخَ خواصرَه ، ويرفعَ قوائمه ، فلا يشكُّ من يراه من الناس أنه ميتٌ منذ دهر ، وقد تركز بالانتفاخ بدنه .. » .

(أ) مانوع هذا الأسلوب ؟ .

(ب) ما أهمُّ مميزاته ؟ .

(٣)

لأبى القاسم الشابِّى :

يأيها الشـادى المغَرِّدُ ها هنـا ثَمِلاً بغبطَةِ قلبـه المسرورِ

متنقـلاً بينَ الخمـائلِ تالياً وحْىَ الربيع السـاحر المسحورِ

---

(١) تحايد عن السنن : مال عن وسط الطريق .

غرِّدْ ففى تلك السهولِ زَنابقٌ تَرْنو إليك بنـــاظر منظـور
غَرِّدْ ولا ترهَبْ يمينىَ إننى مثلُ الطيور بمهجتى وضميرى

(أ) وضحِ الفكرةَ فى الأبيات .
(ب) ما اللون الشعورىُّ الذى أوحى إلى الشاعر بها ؟ .
(حـ) كيف صورَ الشاعرُ الطائر ؟
(د) ماذا ترى من مميزات الصياغة فى الأبيات ؟ .

﴿ ٤ ﴾

من مقال كتبه الدكتور يوسف أبو الحجاج عن البترول :

« من شأْن البترول أَن يلعبَ دوراً فعالا فى التنمية الاقتصادية للوطن العربى فى الحاضر والمستقبل ؛ فهو يعنى بالنسبة لهـذا الوطن أعظمَ مصدَرٍ للطاقة ولرأس المال ، ومادةً لطائفة مهمة من الصناعات البتروكيماوية .

وقد أدخلَ البترولُ كثيراً من التغييرات فى البيئة الجغرافية فى الوطن العربى ، ولكنها ــ مع استثناءَات معينة ــ تتَّضحُ فى مظاهرَ استهلاكية أكثرَ مما تتضحُ فى مشروعات إنتاجيةٍ ذات بال ، ولكنه برغم ماحققَ من تغييرات فى البيئة الجغرافية داخلَ الوطنِ العربىِّ ــ قد عَجَزَ أن يَلْعبَ دورَه الكاملَ فى التنمية الاقتصادية لأَقطار هذا الوطنِ ؛ بسبب عدم ســلامة استغلاله ، وتوجيه سياسته توجيها قوميا سديدا » .

***

من مميزات الأُسلوب فى هذه القطعة :

ــ استخدامُ الألفاظ فى معانيها الحقيقية .

ــ أن الألفاظ ذاتُ دلالة محدودة .

ـ استخدامُ بعض الألفاظ الاصطلاحية .
ـ أنه يهدِفُ قبلَ كلِّ شيءٍ إلى أداءِ الفكرة .
وضح ذلك من القطعة .

(٥)

لابن خفاجَة الأندلسيّ في وصف الجبل :

أَصَخْتُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ
فحدَّثني ليلَ السُّرَى بالعجائبِ (١)
وقال : ألا كم كنتُ موطنَ قاتلٍ
وملجأ أوّاه تبتّلَ تائب (٢) !
وكم مرَّ بي من مُدْلجٍ ومؤوِّبٍ
وقالَ بظلّي من مَطيٍّ وراكب (٣) !
ولاطم مِن نُكْبِ الرِّياحِ معاطفي
وزاحَم من خُضْر البحار غواربي (٤) !
فما كان إلا أن طَوتْهم يدُ الردى
وطارتْ بهم ريحُ النَّوَى والنوائب (٥) !

***

تحدث عن نوعِ الأسلوب ، وعناصره في الأبيات السابقة .

---

(١) أصخت : أصغيت .
(٢) أواه : تائب . تبتل : انقطع للعبادة .
(٣) المدلج : السائر في أول الليل . والمؤوب السائر في آخره . قال : قضى وقت القيلولة (الظهيرة) .
(٤) نكب الرياح : جمع نكباء ، وهي الريح تنحرف عن الطريق المعهود . غواربي : المراد أعالي الجبل .
(٥) الردى : الموت .

الخبر والانشاء

(١)

١ ـ الخبرُ وأغراضهُ البلاغية

ـ نجحت التجاربُ العلميةُ فى مصر لإنتاج الورق من قش الأُرز .
ـ أثّر التليفزيون فى المجتمع وعاداته وتقاليده وقيَمه .
ـ تسيرُ الكشوفُ البتروليةُ فى الوطن العربىِّ بخُطاً واسعة .
ـ تصدقُ الأرصاد الجويةُ فى كثيرٍ من الأحيان .

من رسالة طيار إلى أمه ، وهو يتأهبُ للقيام بغارة جوية خطرة :

« أماه ! لست أستشعرُ نذيرَ الخطر ، ولكن الحوادثَ تجرى سراعا ، وقد أوصيت بأن يرسل إليك كتابى هذا إذا قُدِّرَ لى ألا أعودَ من غارةٍ جوية ، سأقومُ بها وشيكا .

وأحبُّ أن تعيشى بالأمل فى عودتى ، فإذا لم أُعُدْ فليس أمامك إلا أن ترُوضِى نفسك على الواقع . وعزاؤكِ عن فقدى أن تعلمى أن قِسْطى من هذه الحرب كان من أروعِ الأعمال ، وأجلّها شأنا ، فلم أدخِرْ جهدًا فى سبيل النهوض بالواجب ، ولا يستطيعُ رجلٌ أن يقدِّمَ أكثرَ من ذلك ، وليس فى عدادِ الرجالِ من يفعلُ أقلَّ من ذلك .

إنك تخلفينَ ظنى إن لم تحاولى التذَرُّعَ بالصبر ، والتغلّبَ على العاطفة ، وطالما أُعجبتُ بشجاعتك الرائعة فىمواجهة المحن ، وإذا متُّ

فلن يفهم أحدٌ أن جهادك قد ضاع سُدًى ، بل يفهمُ أن تضحيتَك تعادلُ تضحيتي عظمةً وجلالا ؛ فإن الذين يخدُمون الوطنَ لا يليق بهم أن ينتظروا المكافأةَ والجزاءَ ، وإننا نَحْقِرُ أنفسنا ، ونهين كرامتَنا إذا حسِبنا بلادَنا ليست إلا موطناً للنومِ والطعامِ .

لقد تأهبتُ للموت غير آسف إلا على أمرٍ واحد ، هو أني سأحرمُ وقفَ حياتي على إسعادِكِ بوجودي معك ، وقربي منك في سنواتك الأخيرة ، ولكنك ستعيشينَ في سلامٍ وحريةٍ ، اشتركت في إقرارهما بنفسي ، ولهذا لم تَذْهبْ حياتي هباءً » .

❁❁❁

التوضيح

تأمل في أمثلة المجموعة (ا) تجد أن كلَّ مثالٍ منها خبرٌ يلقيه القائلُ إلى السامع ؛ فالمثالُ الأول يتضمنُ الإخبارَ عن ناحيةٍ علمية هي نجاحُ التجارب في مصر لصناعة الورق من قشِّ الأرز . والمثالُ الثاني خَبَرٌ يتصلُ بناحية اجتماعية هي تأثيرُ التليفزيون في المجتمع . والمثالُ الثالثُ يخبر عن سيرِ الكشوف البترولية بخطاً واسعة . والمثالُ الرابع خبرٌ عن صدق الأرصاد الجوية في كثيرٍ من الأحيان .

وهكذا تجدُ أن الخبرَ يُساقُ لإفادة القارىءِ والسامع مضمونَه الذي يتصلُ بناحيةٍ من النواحي العلمية ، أو الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، أو الظواهر والأحداث اليومية .. أو غيرها .

وأنت تقرأ وتسمعُ كلَّ يومٍ كثيرا من الأخبار في الصحف ،

أو الإذاعة المرئيةِ والمسموعةِ ، أو غير ذلك من وسائل الأنباء .

وكلُّ خبرٍ يَحتمِلُ بطبيعته أن يكون صادقا أو غير صادق ؛ فإن كان مطابقا للواقع فهو صادق ، وإن خالفه فهو غيرُ صادق . ومثل هذه الأخبار العادية لاتدخلُ فى نطاق الأدب ، ولا مكانَ لها فى الدراسة البلاغية .

***

انتقل إلى النموذج (ب) تجد جزءًا من رسالة كتبها طيارٌ محاربٌ إلى أُمه ، وهو يتأهبُ للقيامِ بغارةٍ جويةٍ خَطِرَة .

وقد بدأَ الرسالةَ بهذَا الخبر : « لست أستشعرُ نذيرَ الخطرَ ، ولكن الحوادث ... وشيكا » ، ولعلك تلحَظُ أنه لم يُرِدْ أن يخبر أُمه بأنه لا يحسُّ الخطرَ من أحداث الحرب وتتابعها ، ولكنَّ له غرضا آخر يريد أن يصلَ إليه من وراء هذا الخبر ، هو أن يبعثَ الطمأنينةَ فى نفسِها ، فلا يداخلَها الخوفُ عليه من خطرٍ محقق .

وتأمل قــوله : (أُحب أن تعيشى بالأمل فى عودتى .. الواقع) تجد أنه لم يَقْصِدِ مجرد إفادتها بهذا الخبر ، بل إن وراءَ ذلك برًّا بها ، يتجلى فى حرصِه على أن تحيَا مشرقةَ النفس بالأمل ، غيرَ مكتئبة ولا حزينة .

وانظر قوله : « وعزاؤُكِ عن فقدى أن تعلمى أن قسطى من هذه الحرب كان من أروعِ الأعمال ... أقل من ذلك » تجد خبرا تضمن الدلالة على شجاعته وعدمِ مبالاته بهذه النهاية المرهوبة ، وافتخارَه بما أبدى من بطولة فى الحرب ، كما تضمن إيحاءً إلى قلب الأُم بأنه سيجدُ من ذكريات البطولة أقوى زاد للعزاءِ .

وفى قوله : « إنك تخلفين ظنى إن لم تحاولى التذرعَ والتغلبَ بالصبر على العاطفة ... للنوم والطعام » تلحظ أنه يحاولُ الإشادةَ بحكمتها ، وجلدها ، وتعظيمَ تضحيتها ، كما يشيدُ بالوطنية الصادقة ، وما تمليه على أبناء الوطن من بذل وتضحية .

فإذا انتقلتَ إلى الفقرة الأخيرة رأيتَ عدةَ أخبارٍ تحملُ مشاعرَ الحنوِّ والعطف على أمٍّ تزحفُ بها السنُّ فى آخرِ مراحل حياتها إلى الوهن والضعف ، كما تحمل فخرَ الابنِ بما قدّم من تضحية لإقرار الحرية والسلام ؛ لتسعدَ بهما أمه مع سائر الناس .

وهكذا ترى أن الأخبارَ فى هذه الرسالة لا يُقصدُ بها مجردُ إفادةِ مضمونها ، بل إنها تؤدى معانىَ ودلالات أخرى إيحائية ضمنيةً ، تصدُرُ عن الأحاسيس والانفعالات التى تضطربُ بين جوانح الابن ، وهو موزع النفس بين واقعه ، وعاطفته نحو أمه ، ومثلُ هذه الأخبار تدخل فى الإطار الأدبى الذى تُعنَى به الدراسةُ البلاغية .

***

وإليك طائفةً أخرى من النماذج ، تلحظُ منها أظهرَ الأغراض البلاغية للخبر .

١ ـــ قال ابن الرومى :

وأولادنا مثلُ الجوارحِ أيها
فقدناه كانَ الفاجعَ البيِّنَ الفقدِ

لكلٍّ مكانٌ لا يسدُّ اختلاله
مكانُ أخيه من جزوعٍ ولا جلْدِ

٢ ـــ وقال البحترى يخاطبُ الفتح بن خاقان :

يخوّفنى من سوء رأيكَ معشرٌ
ولا خوفَ إلا أن تجورَ وتظلمَا

أُعيذُكَ أن أخشاكَ من غير حادثٍ
تَبَيَّنَ أو جُرْمٍ إليكَ تَقَدَّمَا

٣ ــ ولإيليا أبى ماضى :

إن شرَّ الجناة فى الأرض نفسٌ
توقَّى قَبْلَ الرحيلِ الرحيلا
وتَرى الشوكَ فى الورودِ وتَعْمَى
أن تَرَى فوقَها النَّدَى إكليلا

٤ ــ ومن خطبةٍ للحجاجِ بن يوسف :

« من أعياه داؤُه فعندى دواؤُه ، ومن استطالَ أجلَه فعلىَّ أن أُعَجِّلَه ، ومن ثقلَ عليه رأسُه وضعت عنه ثِقَلَه » .

٥ ــ وقال ابن زيدون :

تكاد حينَ تناجيكم ضمائرُنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسِّينا
حَالَتْ لفقدكم أيامُنا ، فغَدَتْ
سُودًا ، وكانت بكم بيضاً ليالينا

٦ ــ وقال ابن الرومى :

حملتَ أنفاً يراه الناس كلُّهُمُ
من ألفِ مِيلٍ عِياناً لا بمقياس
لو شئتَ كسبابه صادفتَ مكتَسَباً
أو انتصارًا مضى كالسيفِ والفاس

***

١ ــ ارجع النظرَ فى هذه النماذج تجد أَنَّ الشاعرَ فى البيتين

الأولين لم يُرد مجردَ الإخبار بأن أولاد الإنسان كجوارحه ، إذا فُقِدَ أىٌّ منها كان فقدُه موجعا أليما ، وأن لكلٍّ مكانتَه فى قلب الأب سواءٌ أكان صبورا أم جزوعا ، ولكنَّ غرضَه من هذا هو التعبير عن حزنه وأساه لفقد ابنه .

٢ ـ وليس الغرض من الخبر فى خطاب البحترىِّ للوزير الفتح بن خاقان ظاهرِه ، وهو : « أنه لايخشى سوءَ رأيه ، وإنما يخشى الجورَ بغير سبب أو جريمة » ، ولكن الغرضَ الذى يقصدُه هو استعطافُ قلب الوزير ، واستمالتُه إلى العفو عنه .

٣ ـ والخبرُ فى بيتى إيليا أبى ماضى لايُقْصَدُ به ظاهرُه المفهومُ من المعانى اللغوية للألفاظ والتراكيب ، ولكن يراد به نصحُ أولئك المتشائمين ؛ كى يعدلوا عن تشاؤمهم الذى يُعميهم عن مباهج الحياة ومُتَعِها ، ويُجسِّمُ فى أعينهم ما فيها من شرور ومخَاوف .

٤ ـ والخبر فى كلام الحجاج ـ كما ترى ـ يُرادُ به التهديدُ والوعيد .

٥ ـ وانظر إلى بيتَى ابن زيدون ، وهما من قصيدة بعث بها إلى محبوبته ولاَّدة بنتِ المستكفى ـ تجد أن الشاعرَ لا يريدُ ظاهرَ الخبر ، وهو : « أن الأسى يكادُ يقضى عليه إذا تَمثّلها لولا أنه يتجلّدُ ويتصبر ، وأن أيامه بعدها قد صارت كئيبةً قاتمة » ، ولكنه يُضَمِّنُ هذا الخبرَ التحسُّرَ على ذكريات حلوة مضت ، وعهد هنىءٍ ولى وراح .

٦ ـ أما الصورةُ الهزليةُ الساخرةُ فى البيتين الأخيرين لابن الرومى فلا يرادُ بها مجرد تصوير ذلك الأنف الكبير العجيب الذى يُرَى من بُعْد كبير بالعين المجردة ، والذى يصلُحُ أن يكون

أداةٌ للكسب والحرب ، ولكن المقصود التهكمُ بصاحب هذا الأنف ، والسخريةُ منه .

الخلاصة :

١ — الخبرُ قولٌ يرادُ به إفادة السامع أو القارىءِ مضمونه ، وهو يحتملُ أن يكون صادقا إذا طابق الواقع ، وغير صادق إذا خالفه .

٢ — من الخبر ماهو عاديٌّ لايُقصد به غيرُ المعنى الذى تؤديه الألفاظ والتراكيب بدلالاتها اللغوية ؛ وهذا اللون من الخبر لايدخلُ فى نطاق الأدب ، ولا فى الدراسة البلاغية .

ومن الخبر ما هو أدبى يُوحى بشعورِ قائله ، ويومىءُ بدلالته إلى حالة نفسيةٍ معينةٍ يُحِسُّ بها ، كإظهار الحزن والألم ، أو الاستعطافِ والاسترحام ، أو النصح والإرشاد ، أو التهديد والوعيد ، أو التحسر على شىءٍ محبوب فات ، أو التهكم والسخرية .. أو غير ذلك من الدلالات التى تُفْهَم من سياق الكلام ، ومن وراءِ سطوره ، والتى تسمَّى الأغراض البلاغية للخبر

٣ — سرُّ جمال الخبر الأدبى أنه يتصلُ بوِجدان الأديب ، ويُثرى به الكلام ؛ لما فيه من المعانى والدلالاتِ الشعورية الزائدة على المعنى اللغوى .

***

الانشاء واغراضه البلاغية

مرَّ بك أن الخبرَ هو ما ينقله القائلُ إلى السامع ؛ ليفيده مضمونه ، وأنه فى ذاته يحتملُ أن يكونَ صادقاً إذا طابق الواقع ، وغير صادقٍ إذا لم يطابقه .

أما الإنشاءُ فأسلوبٌ لا ينقلُ خبرا ، ولا يحتمل الصدق أو عدم الصدق ، وإنما يُنْشِىءُ به قائله شيئا ، كأن يأْمر بأمرٍ ما ، أو ينهى عن شىءٍ ما ، وكأن يستفهم ، أو ينادى ، أو يتعجب ، مثل :

عامل الناسَ بماتحبُّ أن يعاملوك به .

لاتؤَخرْ عملَ اليومِ إلى الغد .

هل زرتَ السدَّ العالىَ ؟

يابُنى ، نظّم عملك .

ماأجملَ الربيعَ فى مصرَ ! .

ومن الإنشاء ماهو عادىٌّ ، لا يحمل أكثر من معناه اللغوى ، كما فى الأمثلةِ السابقة ، ومنه ماهو أدبىٌّ ، كالإنشاء فى الأبيات الآتية ، وهى لإبراهيم ناجى . يقول :

رفرَفَ القلب بجنبى كالذبيحْ وأنا أهتِفُ : ياقلب اتَّئِدْ
فيجيب الدمعُ والماضى الجريحْ لِم عُدنا ؟ ليت أنَّا لم نعدْ !

***

لِم عُدْنا ؟ أو لم نطوِ الغرام ؟ وفرغْنا من حنينٍ وألم !
ورضينا بسكونٍ وسلام وانتهينا لفراغٍ كالعدم !

***

آهٍ مما صنع الدهرُ بنا أوَ هذا الطلل العابس أنتا ؟
والخيال المطرقُ الرأس أنا ؟ شدّ مابتنا على الضنك وبتّا !

❋❋❋

فقد ساق الشاعر هذه الأبيات في موقفٍ عاطفيٍّ أثار أساه . كان يتردّد على دار من أحبها ، وكانت هذه الدارُ له كعبة ، يطوفُ بها ، ويقدّسها ، ثم عاد إليها ، فكانت صدمة قاسية لقلبه أنها تنكّرت له ، ووقف منها وقفةً غريبٍ ، حزين ، تصطرع في نفسه الخواطر والأشجان .

ويدورُ حوارٌ بينه وبين قلبه ، ودمعه ، وماضيه الجريح . يرفرف قلبه سريعاً مضطربا كرفرفةِ المذبوح ، فيناديه : « يا قلب اتئدْ » ويثور عليه دمعه وماضيه الجريح ، فيسألانه : « لم عدنا ؟ أو لم نطو الغرام ؟ وفرغنا من حنين الحب وآلامه ، وانتهينا إلى يأسٍ فيه سكونٌ كسكون العدم » .

ويتأوّهُ الشاعرُ وقد بدا له أنه خيال مطرق حزين أمام دار صارَت في ناظره طَلَلاً خَرِباً ، ويقول : أوهذا الطللُ العابسُ أنت ؟ والخيالُ المطرقُ أنا ؟ وإذا تأملت رأيتَ :

أن الأمرَ في قوله : « اتئد » ليس لمجرد الطلب ؛ لأن القلب ليس عاقلا يؤْمَرُ فَيستجيب ، وإنما هو أمر يحمل أمنيةَ الشاعر في أن يَهدأ قلبه من ثورته ووجيبه ، فهو للتمنى .

وأن الاستفهام في قوله : لمَ عدنا ؟ ليس على حقيقته ؛ لأن الدمعَ والماضيَ الجريحَ لاينتظران عليه جوابا ، وإنما هو يحملُ مشاعرَ العتب المُرّ على الشاعر ؛ لما وقع منه من خطإٍ في هذه العودة المؤلمة .

وأن الاستفهامَ في قوله : « أو لم نطو الغرام ؟ » يحمل معنى

التقرير ؛ إذْ يحاولُ به الدمعُ والماضى الجريحُ أن ينتزعا من الشاعر اعترافاً بخطئه فى عودته ، وتمتزجُ بذلك مشاعر الأسى والألم .

فإذا انتهيتَ إلى الاستفهامين الأخيرين : « أو هذا الطللُ العابس أنت ؟ والخيالُ المطرق أنا ؟ » رأيتَ أن الكاتب لا ينتظرُ من الطللِ ولا من نفسه جواباً ، وإنما يتحمّلُ هذين الاستفهامين الإحساسَ بالحسرة والندم ، لما انتهى إليه أمر الدار ، وماصارت إليه حالته .

ومثلُ هذه المشاعر يحملها الأسلوب التعجبىّ فى قوله : « شدّ مابتنا على الضّنكِ وبتا ! » ، وهكذا ترى أن الإنشـاءَ الأدبى لا يُقْصَدُ به معناه اللغوىّ ، وإنما يُقْصَدُ به ماوراءَ هذا المعنى من دلالاتٍ وإيحاءَات .

ومما تقدم يتبين :

١ ـ أن الإنشاء هو ماينشئُ به قائله شيئا من : أمرٍ ، أو نهىٍ ، أو استفهام ، أو نداءٍ ، أو تعجبٍ . وأن منه ماهو عادىٌّ ، وما هو أدبىٌّ .

٢ ـ أن الإنشاءَ الأدبى لا يحملُ مجردَ معناه اللغوىّ ، ولكنه يوحى بمعان ، ودلالات شعورية أُخرى تتجاوزُ معناه اللغوى .

٣ ـ أن هذه المعانىَ والإيحاءَات مرجعها :

(ا) الشعورُ المسيطرُ على الأديب فى الموقف الذى يساقُ فيه هذا الإنشاءُ .

(ب) الجوُّ الذى يُلْقَى فيه الكلام ، وحالُ من يُلقَى إليه .

تمرينات

(١)

لأبى جعفر المنصور :

« أيها الناسُ : لا تَخْرُجوا من أُنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسِرّوا غِشَّ الأئمّة ؛ فإنه لم يُسِرَّ أحدٌ قطُّ مُنْكَرَةً إلا ظهرت فى آثار يده ، أو فلتاتِ لسانه ، وأبداها اللهُ لإمامه لإعزاز دينه ، وإعلاءِ حقه .

إنا لن نبخَسَكم (١) حقوقَكم ، ولن نبخسَ الدينَ حقّه عليكم . إنه من نازَعنا عروةَ هذا القميص أجزرناهُ خبيءَ هذا الغمد (٢) » .

***

(ا) عين الخبرَ والإنشاءَ فى النصِّ السابق .

(ب) بين الغرضَ البلاغىَّ من الخبر والإنشاءِ فيه .

(ج) لماذا جمعَ الكاتبُ بين (لن نبخسَكم حقوقَكُم) ، و (لن نبخسَ الدينَ حقّه عليكم) ؟ .

(٢)

قال حافظٌ على لسانِ مصر :

إن فى الغرب أعينا راصدات (٣)
كحلتْها الأطماعُ فيكم بسهد
فوقها مِجْهرٌ يريها خفايا
كم ويطوى شعاعُه كلَّ بعد

---

(١) لن نبخسكم : لن ننقصكم .
(٢) اجزرناه خبىء هذا الغمد : ذبحناه بالسيف .
(٣) مترقبات .

فاتَّقـــوها بجُنَّـــة من وئام
غير رث العــرا وسُــعْىٍ وكَدٍّ
واصفحوا عن هَنات من كان منكم
ربَّ هافٍ هفـا على غير عَمْــد

(ا) عين الخبرَ والإنشاءَ فى الأبيات .

(ب) ما الغرضُ من الخبر فيها ؟

(ج) ماقيمةُ : « كحلتها الأطماع فيكم بسُهْد » فى هذا الخبر ؟

(د) ما الغرضُ من الإنشاءِ فى الأبيات ؟

(هـ) وما قيمةُ : (غير رثِّ العرا) فى البيت الثالث ؟

(و) ماسرُّ جمال الخبر والإنشاء فى الأ بيات ؟ .

« ٣ »

لمحمود حسن إسماعيل على لسان الشرق :

أنا البعثُ مهما قاومَ الغــرب ثورتى
أنا النــورُ مهما قاومَ الليــلُ يَقظتى
أنا الحـــرُّ يدرى كلُّ حرٍّ مواقفى
ويشهد لى التاريخ فى كلِّ صـــفحة
أنا العزةُ الكبرى . أنا الشرق فليَعُدْ
إلىَّ كيــانى بعــد طول التَفَتُّت

(ا) ما الغرضُ من الخبر فى الأبيات ؟

(ب) وما القرائنُ التى توحى إليك بهذا الغرض ؟

(ج) عين الإنشاءَ فى البيت الأخير ، وبين الغرض منه .

(د) ماذا ترى من جمالٍ فى الخبر والإنشاءِ فى الأبيات ؟

قال المتنبى :

ومراد النفوس أصغرُ من أن تتعادَى فيه ، وأن تتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ، ولا يلاقى الهوانَا

(ا) اشرح البيتين بعبارتك .

(ب) بين العلاقة بينهما .

(ج) ما الغرضُ الأدبى من الخبر فيهما ؟ وما سرُّ جماله ؟

(٥)

قال المتنبى :

أقمتُ بأرض مصرَ فلا ورائى
تَخُبُّ (١) بىَ الركابُ ولا أمامى
ومَلّنىَ الفراشُ وكان جَنْبِى
يَمَلُّ لقاءَه فى كلِّ عام
قليلٌ عائدى ، سَقِمٌ فؤادِى
كثيرٌ حاسدى ، صعبٌ مرامِى

(ا) كيف صورت الأبياتُ حالَ الشاعر ؟ .

(ب) ما غرضُه البلاغىُّ منها ؟

(ج) ماقيمةُ قوله فى البيت الثانى : « وكان جنبى يملُّ لقاءَه فى كل عام » ؟

---

(١) تخب : الخبب نوع من السير .

(٦)

فيما يلى أبيـات للبحترى فى مصرع المتوكل على الله الخليفـة العباسى :

تَخَفَّى له مغتـالُه تحت غـرَّة
وأولى لمَن يغتـالُه لو يُجـاهِرُه
صريعٌ تقاضاهُ الليـالى حُشَاشَةً (١)
يجـودُ بهـا والموتُ حُمْرٌ أظافرُه
أدافعُ عنـه باليـدين ، ولم يكُنْ
ليثنى الأعادى أعزل (٢) الليل حاسرُه
ولو كانَ سيفى ساعةَ الفتك فى يدى
درى الفاتكُ العجلانُ كيف أُساوِرُه
حرامٌ علىَّ الراح بعـدَكَ أو أرى
دماً بدمٍ يجـرى على الأرض مائرُه
وهـل أرتجى أنْ يطلبَ الدَّم واترٌ
يَدَ الدهـر والموتورُ بالدمِ واترُه ؟
فلا مُلِّىَ البـاقى تراث الذى مضى
ولا حَمَلَتْ ذاكَ الدعاءَ مَنَـابِرُه

تحملُ الأبياتُ مشاعر شتى :

(ا) ماالغرضُ البلاغىُّ من الخبر فى البيت الأول ؟

---

(١) الحشاشة : بقية الروح .
(٢) الأعزل : من لايحمل سلاحا .

(ب) كيفَ صــورَ البيتان الثانى والثــالثُ مصرعَ المتوكلِ ، وموقفَ الشاعرِ منه ؟

(ج) ما الهدفُ من الخبر فى البيت الرابع ؟

(د) ماذا يحملُ البيتُ الخامس من مشاعر ؟

(هـ) مانوعُ الأسلوب فى كلٍّ من البيتين الأخيرين ؟ وما الغرضُ البلاغىُّ منه ؟

من أساليب الإنشاء

١ ـ الاستفهام وأغراضه البلاغية

١ ـ قال تعالى :

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[١] » .

٢ ـ وقال :

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ؟ بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً[٢] » .

٣ ـ وقال إسماعيل صبرى :

أين الأُلى سَجَّلُوا فى الصخر سيرتَهم ... وصغَّرُوا كلَّ ذى مُلْكٍ وسُلْطَانِ ؟

٤ ـ لشوقى وهو فى منفاه بالأندلس :

يابنةَ اليمِّ ما أبوكِ بَخيـلٌ ... ماله مولعاً بمنعٍ وحَبْسِ ؟!

أحرامٌ على بلابله الدو ... حُ حلالٌ للطيرِ من كلِّ جنْسِ ؟!

---

(١) سورة الصف ، الآيتان (١٠ ، ١١) .

(٢) سورة الفتح ، الآية (١١) .

٥ ـ ولأبى تمام :

أين الروايةُ ؟ بل أين النجــومُ وما
صاغوه من زخرُفٍ فيها ومن كَذِبِ ؟
تَخَرُّصاً وأحاديثاً ملَفَّقَــةً
ليست بنبعٍ إذا عُــدَّتْ ولا غَرَبِ

٦ ـ وله أيضا :

أمِنْ بَعْدِ طَىِّ الحادثاتِ محمــداً
يكونُ لأثواب النَّــدى أبداً نَشرُ ؟
إذا شَجَرَاتُ العُرْفِ جُثَّتْ أصولُها
ففى أى فرعٍ يوجدُ الورقُ النَّضْرُ ؟!

٧ ـ ولإبراهيم ناجى :

ســيانِ ما أجهــلُ أو أعلم
من غامضِ الليلِ ولغْزِ النهار
ســيستمرُّ المسرحُ الأعظمُ
روايةٌ طالت ، وأينَ السِّتار ؟

التوضيح

تأمل النماذجَ المتقدمةَ ، وقفْ عند الاستفهامِ فى كلٍّ منها ، وحاول أن تعرف دلالته ، ومايوحى به .

فى النصِّ القرآنى الأولِ ترى سؤالا موجها إلى المؤمنين : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تجارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عذابٍ أليمٍ ؟ » ، وترى الجوابَ عن هذا السؤالِ يجعلُ مجالَ هذه التجارة فى الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله بالأموال والأنفس .

فما المقصودُ بهذا الاستفهام ؟ إنه للتشويق ، وإثارة الانتباه ، وواضح فيه أنه يُشْرِكُ المخاطبينَ فى التفكير ، وفى التَّطَلُّعِ إلى

الجواب ، وفى ذلك تقدير لهم ، وبه تستقر الفكرة فى نفوسهم أكثر مما تستقر بالخبر العادى ، كأن يقال : « إن الإيمان والجهاد خير تجارة » .

وفى الآية الثانية ترى المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون بأن أموالهم وأهاليهم شغلتهم عنه ، ويلتمسون منه أن يستغفر لهم ، والواقع أنهم حاقدون على الدعوة الإسلامية ، يتظاهرون بتأييدها ، وهم فى أعماق قلوبهم لا يريدون لها ظهورا ولا انتصارا .

وفى الرد على مازعموا يأمر الله نبيه عليه السلام أن يقول لهم : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ فماذا يعنى هذا الاستفهام ؟ إن المراد به أن أحدا غير الله تعالى لايملك من أمرهم شيئا ؛ ففى الاستفهام معنى « النفى » ، ومع النفى تهديد بالعذاب ، كما أنه يحمل المنافقين على أن يتنبهوا ويفكروا ؛ ليصلوا إلى هذه الحقيقة الأليمة بأنفسهم .

وفى النموذج الثالث يتحدث إسماعيل صبرى عن الفراعنة ، مبهورا بما أثلوا من مجد ، وما سجلوا من تقدم حضارى ، تنطق به آثارهم التى خلفوها فى تلك العصور الموغلة فى القدم ، والتى تغض من كل ملك وسلطان لغيرهم . فماذا يحمل الاستفهام فى قوله : « أين الألى .. » ؟ لاشك أنه يحمل معنى (التعظيم) بما وراءه من مشاعر الإعجاب والإجلال .

وفى النموذج الرابع ترى « شوقى » فى منفاه بالأندلس يحن أن يعود إلى وطنه الحبيب مصر ، ويسمع صوت السفينة ، فيزداد به هذا الحنين ، وهو هنا يتوجه إلى السفينة ابنة البحر ، التى عرف

أبوها بجُودِه ويسألُ : ما للبحر مولعا بمنع وحبس ؟ أحرام على بلابلِ مصرَ دوحاتها وهى حلالٌ لغيرِها من الطير ؟! ومن اليسيرِ أن تتبينَ في كلٍّ من الاستفهامين مشاعرَ « الدهشة ، والتعجب مع إنكار هذا الموقف الغريب » ، ويزيدُ من وضوحِ هذه المشاعر والدلالات فى السؤال الأول — أن الشاعرَ يعدلُ عن خطابِ البحرِ لأنه ينكرُ عليه موقفَه ، ويوجه الخطاب إلى السفينة لتدهشَ معه ، وتنكرَ معه ، كما يزيد من وضوحها السؤال الثانى ، وهذه الموازنةُ بين بلابلِ مصرَ ، وطير غيرها .

وفى النموذج الخامس لأبى تمام ترى الشاعرَ يتحدثُ عن كذب المنجمين ، الذين أشاروا على المعتصمِ أن يُرجِئَ الخروجَ إلى عَمّوريّة لحرب الروم ، لأن الكواكبَ أنبأتهم بذلك ؟ فقد خالفهم المعتصمُ ، وخرجَ ، فانتصرَ نصرا مبينا .

وفى هذا الحديث يتساءلُ أبو تمام : أين الروايةُ ؟ أين النجوم ؟ وهو لايريد أن يدلَّه أحد على مكانِ الرواية أو النجوم ، وانما هما استفهامان ، يحملان مشاعر « التهكم والسخرية بالمنجمين » ، ويدفعان السامعَ أن يشاركَ الشاعرَ فى التهكم بهم ، والسخرية منهم .

وفى النموذج السادس تقفُ أمامَ بيتين لأبى تمام أيضا ، يتحدثُ فيهما عن محمد بن حُمَيْدٍ الطوسى ، الذى قُتِلَ فى الحرب قِتْلَةَ بَطل شجاع ، ويتساءلُ : أمن بعد مقتل هذا الرجلِ الجواد يحيا النَّدَى ؟ وفى أى فرع ينبتُ الورقُ النَّضْرُ إذا كانت شجرات الجود قد قُطِعَتْ من أصولها ؟ ولكنه لا ينتظر جوابا ، وإنما يُحَمِّلُ هذين الاستفهامين مشاعرَ « الأسى والحسرة » على هذا الرجلِ الذى مات الندى بموته ، ويُعْجِبُكَ فى استفهاميه أنه يستثيرُ بهما السامعَ

إلى مشاركته فى أساه وحسرته ، عن طريق دليل حسّى واضح ، هو شجراتُ الجود ، التى جُذّتْ أصولُها ، وجفت فروعُها ، فأصبح عسيرا أن ينبتَ بها الورقُ الناضر .

وفى النموذج الأخير لناجى ترى الشاعرَ فى حيرة بين ما يجرى على مسرح الحياة من أحداث يتعاقبُ بها الليلُ والنهارُ فى فصول تتتابعُ ولا تتناهى ، ويختمُ بيتيه بقوله : « أين الستار ؟ » ، ومن اليسير أن تُحسَّ أنه استفهام يحملُ معنى (الاستبعاد) بما وراءَه من حيرة وتعجب ، وأنه أجمل من أن تعرض الفكرةُ فى صورة خبرية ، كأن يقال « الستار بعيد » ، لما فى الاستفهام من استثارة ومشاركة لا تتأتى بمثل هذا الخبر .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين :

١ ـ أن الاستفهامَ الأدبىّ لا يُطلبُ به جواب ، وإنما يحملُ من المشاعر والدلالات ما يخرجُ به إلى أغراض متعددة : كالتشويق وإثارة الانتباه ، والنفى ، والتعظيم ، والتعجب ، والإنكار ، والتهكم والسخرية ، والتحسر ، والاستبعاد وغيرها من المعانى والدلالات التى تُفْهَمُ من القرائن .

٢ ـ أن دلالات الاستفهام والمشاعر التى يُوحى بها تَتّضحُ من خلال تَعَرف الموقف الذى يُسَاقُ فيه ، وحال المخاطب به ، والجوّ الشعورىّ المسيطر على هذا الموقف .

٣ ـ من النواحى الجمالية التى تبدو فى الاستفهام الأدبىّ : أنه يعطى الكلامَ حيوية ، ويزيد من الإقناع والتأثير به .

وذلك لما فيه من إثارة للسامع ، وجذب لانتباهه ، ومن إشراكه في التفكير ؛ ليصل بنفسه إلى الجواب دون أن يتمنّى عليه .

تدريبات

(١)

قال تعالى :

« إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأرض . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرضُ اللهِ واسعةً فَتُهَاجِرُوا فيها ؟ فأُولئك مأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً[1] » .

(ا) فى الآية دعوة إلى عدم الانقياد للمستكبرين المُضلّين . من أين تفهمُ ذلك فيها ؟

(ب) عين كلَّ أسلوب استفهاميٍّ فى الآية ؟

(ج) ما الغرضُ البلاغى من الاستفهام الأول ؟ وما الغرضُ البلاغى من الاستفهامِ الثانى ؟

(٢)

لعروةَ بن الوردِ :

أتهزأُ منى أن سمنتَ وأن ترى ... علىَّ شحوبَ الحق والحق جاهد

أقسِّمُ جسمى فى جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قَراحَ الماء والماء بارد

(ا) بماذا يعللُ الشاعرُ شحوبَه وهزالَه ؟

(ب) ماذا يَقصدُ بالاستفهام فى البيت الأول ؟

(ج) أيهما أجملُ فى هذا المقام : استخدام أسلوب الاستفهام أم

(١) سورة النساء ، (الآية ٩٧) .

استخدام الأسلوب الخبريّ الذي يؤدّي المعنى ؟ ولماذا ؟

(٣)

لأبي فراسٍ :

بمن يثقُ الانسان فيما ينوبُه ؟ ومن أين للحرّ الكريم صِحابُ ؟

(ا) اشرح البيتَ بعبارتِك محتفظا بمعناه الأدبي .

(ب) ما الغرض البلاغي من الاستفهامِ فيه ؟ وما سر جماله ؟

(٤)

يقول أبو العلاء المعرّي :

وهوّنتُ الخطوبَ عليّ حتى كأني صرتُ أمنَحُها الودادا
أأُنكِرها ومنْبتُها فؤادي ؟ وكيف تُنكِرُ الأرض القتادا ؟[1]
فأي الناسِ أجعَلُه صديقا ؟ وأي الأرضِ أسلكُه ارتيادا ؟
ولو أن النجومَ لديّ مالٌ نفت كفاي أكثرَها انتقادا

(ا) ما الصورةُ التي ترسُمها الأبياتُ لأبي العلاء ؟.

(ب) عين كلَّ أسلوب استفهاميٍّ فيها ، وبين الغرضَ البلاغِيَّ منه .

(ج) ما العلاقةُ بين شطريِ البيتِ الثاني ؟ .

(٥)

لابن عبدون الأندلسيّ في بني المظفّر :

بني المُظَفّر والأيامُ ما بَرِحت مراحلا والورى منها على سَفرِ
من للأسرّة ؟ أو من للأَعنّة ؟ أو من للأسنة يهديها إلى الثّغَر ؟
من لليَراعة ؟ أو من للبراعة ؟ أو من للسّماحة أو للنفعِ والضرر ؟
كانوا رواسي أرضِ الله منذ مضوا عنها استطارت بمن فيها ولم تطرِ

(١) القتاد نوع من الشوك .

(ا) ماذا فقدت الأندلسُ بفقد بني المظَفَّر في رأي الشاعر ؟
(ب) ماذا يحمل الأسلوب الاستفهامي فيها من المشاعر ؟
(ج) حَرَصَ الشاعرُ على إيقاع موسيقي خاصٍ داخل الأبيات . وضح ذلك .

(٦)

للأديبة مي :

أيها الشرقُ الكبير : أي قوة هذه التي تَشدُّ وتَناقى إليك ؟ لماذا أهْوَى من لغتكَ الشدوَ الشجيَّ ، والنَّبرة السريعةَ الحادة ، والهتاف الأدبيَّ الحارَّ ؟ .. أيةُ وديعة للغتك عندي ؛ حتى تثيرَ لهجاتها عندي البكاءَ الحنونَ كبكاءِ اللقاء بعد فراق طويل ؟ .. ألا نظرةٌ إلى هذه السماءِ المخيمة عليك ببهاءِ العَسجد واللجَيْن والأرجوان ! إنها الجو الذي أظلَّ الرسلَ ، وما رضيت النبواتُ أن تنزلَ في غيرِ هوائه . إنك أيها الشرقُ اصطَفيتَ ؛ لتكونَ أرضَ الأبطال .

(ا) صور في ضوءِ هذه القطعة عاطفة (مي) نحو الشرق .
(ب) ما النواحي التي أثارت عاطفتها نحوه ؟
(ج) عين كلَّ أسلوب استفهامي في القطعة ، والغرض منه ، ثم بيِّنِ القيمة الجماليَّة له .

(٧)

قال شوقي (*) :

وباعُ الخلد . ويحك ! مادهاها؟ أحق أنها دَرَسَت أحـق ؟ (١)

(*) من قصيدته في نكبة دمشق على يد جيش الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٥ .

(١) رباع : ديار . ويح : كلمة ترحم . درست : بليت .

وهلْ غُرَفُ الجنانِ مُنضداتٌ ؟ وهل لنعيمهنَّ كأمسِ نسْقُ ؟(١)
وأين دُمى المقاصرِ من حجالٍ مهتّكةٍ وأستارٍ تُشق ؟ (٢)

(ا) بيّن الغرض البلاغيّ لكلّ أسلوب استفهامى فى الأبيات .

(ب) بيّن القيمة الجماليّة لأسلوب الاستفهام فيها .

(١) منضدات : منسقات .
(٢) دمى المقاصر : المراد الفتيات الجميلات . الحجال : جمع حجلة، وهى الستر يضرب للعروس .

٢ـ الأمر وأغراضه البلاغية

١ ــ قالَ تعالى :

« وَ كَأَيِّن مِّن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهنوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمُ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »[١] .

٢ ــ وقال :

« فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »[٢] .

٣ ــ وقالَ المتنبى :

أقلَّ اشتياقا أيها القلبُ ربمـا
رأيتُك تصفي الود من ليس جازيا

٤ ــ وقال بشارُ بن برد :

أورقْ بخَيْرٍ تُرجَّى للنَّوالِ ، فَمَا
تُرْجَى الثمارُ إذا لم يورقَ العـودُ

٥ ــ ولابن زيدون :

يا سارىَ البرقِ غادِ القصرَ فاسق بهِ
من كانَ صِرفَ الهوى والوُدِّ يسقينا

(١) سورة آل عمران . الآيتان : (١٤٦ ، ١٤٧) .
(٢) سورة القلم . الآية (٤٤) .

واسأل : هنالكَ هل عنّى تَذَكّرُنا
إلفا تَذَكّرُه أمسى يُعنّينا

٦ وقال تعالى :

« خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [1] .

٧ ـ وقال البارودى :

رُدُّوا عَلَيَّ الصِّبَا من عصرىَ الخالى
وهل يعودُ سوادَ اللِّمة البالى ؟
ماضٍ من العيشِ ما لاحتْ مخايلُه
فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى

٨ ـ ولإيليا أبى ماضى :

لتكن حياتك كلها أملا جميلاً طيبا
ولتملأ الأحلام نفسك فى الكهولة والصِّبا
مثلَ الكواكب فى السماءِ وكالأزاهر فى الرُّبا

***

(١) سورة لقمان · الآيتان (١٠ ، ١١) .

التوضيح

١ — تأمل في المثال الأول تجد أنه يشتمل على عدة أفعال للأمر (رَبَّنا اغفِر لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا ، وثَبِّتْ أقدامَنا ، وانْصُرنا علَى القومِ الكافرين) ، والطلبُ فيها موجَّه إلى الله تعالى من المؤمنين المخلصين الذين نصروا أنبياءَهم ، وقاتلُوا معهم في صبرٍ وجلدٍ ، وفي غير تردد ولا ضعف ، وكانوا إذا عَظُمت أهوالُ الحرب يتجهون إلى الله أن يغفرَ لهم مابدر منهم من ذنوبٍ ، ويثبِّتهم في مواجهةِ شدائِد الحرب ، ويهيىءَ لهم أسبابَ النصر على أعدائِهم، وأعداءِ الدينِ من الكفار . والأمرُ هنا ليس على حقيقته ؛ لأنه تعالى لا يُؤمَرُ ، وإنما يقصَدُ بالأمر الدعاء ، وفيه تتجمعُ وتمتزجُ مشاعر الخشوعِ لله والثقة به ، والاطمئنانِ إلى عظيمِ قدرته ، والتأميلِ في رحمته وعفوه ونصره .

٢ — وانظر في المثالِ الثاني تجدْ أنه سبحانه وتعالى يأمرُ نبيه محمدا صلى الله عليه وسلَّم أن يترك له أمر المشركين برسالته وبما نزلَ به من القرآنِ الكريم ؛ لأنه تعالى يَسْتدْرِجُهم شيئا فشيئا إلى العذاب الذي يستحقونه حتى ينزلَ بهم من حيثُ لايعلمون .

والأمرُ بهذا لا يُقصَدُ به ظاهره ، ولكن يراد به تهديد أولئك المشركين بما سوفَ يَحيقُ بهم من العذاب الشديد الذي لا يُفلِت منه أحد منهم .

٣ — وفي المثال الثالثِ ترى المتنبي يُوجِّه الأمر إلى قلبِه أن يقلِّلَ من اشتياقه وتعلقِه بمن لايفي له ، ولا يبادِله الود صافيا خالصا .
فماذا يقصدُ المتنبي بتوجيه الأمر إلى قلبِه ؟

إنه لا يريدُ من الأمر معناه الحقيقيَّ ، ولكنه يتمنى أن يخفف قلبُه من غلَوَائه ، وألا يُلحَّ في التعلق والحنين بمن لا تجزيه حبا بحب ووفاءً بوفاء .

٤ — وفي المثال الرابع ترى بشارَ بن بُرد يخاطبُ العباسَ بن محمد ، وقد حاول استدرارَ عطائه فلم يمنَحْه ، فوجه إليه هذا الأمر : (أورقْ بخير ترَجَّى للنوالَ) يسأله بذلَ العطاء ولو قليلا ، فقد بلغ به البخلُ أنه لايعطى شيئا ، وإذا لم يعطِ القليل فلا يرجى منه الكثيرُ ، ومن اليسير عليك أن تدْرِكَ أن هذا الأمرَ فيه تعريض بالمخاطب وذم له بالبخل والشحِّ .

٥ — وانظر إلى قول ابنِ زيدون في المثال الرابع ، حيثُ يوجِّهُ الخطابَ إلى البرق ، ويأمُره أن يباكر قصرَ أحبابه بالسقيا والريِّ ، وأن ينوبَ عنه في مساءَلةِ أولئك الأحباب : هل يقاسون — كما يقاسى — مرارةَ البعدِ وألمَ الحرمان ؟

ولعلك تلْحَظُ أن الأمر هنا لا يُقصَدُ به معناه الأصلى ، ولكنْ المقصودَ ماوراء ذلك من أحاسيس الشاعرِ التى يمتزجُ فيها الحنين والتشوقُ والألم لما يعانيه من قسوةِ الحرمان ولوعةِ الذكرى .

٦ — وإذا تأملتَ الأمرَ في قوله تعالى : (هذا خَلْقُ الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟) بعد أن أوضحت الآية الأولى كثيرا من مظاهر قدرةِ الله : في خلقِ السموات ، ورفعها بغير عمد ، وإرساء الجبال الشوامخ في الأرض ، وبثِّ أصناف الحيوانِ على ظهرها ، وإنزال الماء من السماء ، وإخراجِ النباتِ به متعدِّدَ الأصناف والمنافع — إذا تأملتَ الأمر بعدَ هذا العرض الخاطفِ لجانبٍ من مظاهر قُدرَةِ الله في الأرض والسماء أدركتَ أن الغرض منه

تعجيزُ أولئك المشركين أن يَثْبتوا لآلهتهم التى يَعبدونها من دون الله خلقا مثلَ خلقِه .

٧ – والأمر فى بَيتَى البارودىّ يرادُ به التحسرُ على زمن الشباب الذى وَلّى بسحرِه ومباهجه ، ولن يعود .

٨ – أما أبياتُ إيليا أبى ماضى فان الأمر فيها يُقصَدُ به النصح والتوجيه إلى الإقبالِ على الحياةِ وملءِ النفس دائما بالأمل المشرق الجميل .

***

الخلاصة :

١ – الأمر الأدبى هو الذى يحمِلُ وراء معناه اللغوىّ معانى ومشاعرَ أخرى يريدُها القائِل ، وتُستَكشَف من كلامه :

كالدعاء ، والتهديد ، والتمنّى ، والذمّ أو التحقير ، والتعجيز ، والتحسر ، والنصح أو الإرشاد .. ونحوها مما يُطلقُ عليه الأغراض البلاغية للأمر

٢ – تتضح الأغراض البلاغيةُ للأمر من خلالِ تَعَرّفِ الجوّ الشعورىّ المسيطرِ على قائله ، ومن السياق والقرائن التى تُحيط به .

٣ – سر الجمال فى الأمر الأدبىّ أنه يتصلُ بشعور القائل ، وما تموجُ به نفسُه من أحاسيس ، وأنه يجذب السامعَ بانتقاله من المعنى اللغوىّ إلى ماوراءه من الدلالاتِ والمشاعر .

تمرينات

(١)

من وصية عبد الله بن الحسن لابنه :

« أى بنىّ : إنى مؤد حقّ الله فى تأديبك فأدّ إلىّ حق الله فى الاستماع منى . أى بنىّ : كُفَّ الأذى ، وارفض البَذَا (١)، واستغنِ عن الكلامِ بطولِ الفِكر فى المواطن التى تدعُوك فيها نفسُك إلى الكلام ؛ فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأُ ، ولا ينفعُ فيها الصواب»

(ا) بماذا مهّدَ عبدُ الله بنُ الحسن لوصيته ؟ ولماذا ؟

(ب) عين أساليب الأمر فيها ، وبين الغَرَض البلاغىّ منها .

(٢)

لأبى القاسمِ الشابىّ يخاطبُ الطائر :

يأيها الشادى المغَرِّد ها هنا ثَملا بغبْطَـة قلبه المسرورِ

قبّلْ أزاهير الربيع ، وغَنّها لحنَ الصباحِ الضاحك المحبور

واشربْ من النبع الجميل الملتوى مابينَ دوحِ صَنَوْبَرٍ وغَدير

واترُك دموعَ الفجر فى أوراقها حتى تَرَشَّفها عروسُ النور

(ا) بماذا يناجى الشابّى الطائرَ فى الأبيات ؟

(ب) وما اللونُ الوجدانى الذى يشيع بها ؟

(ج) ما الغرضُ البلاغى من الأمر فيها ؟ وما سر جماله ؟ .

(٣)

(ا) اقرأ القصصَ الأدبيةَ الهادفة .

---

(١) البذا : فحش القول .

(ب) هل لك أن تقرأ القصص الأدبية الهادفة ؟.

(ج) هل أدلكَ على خير متعة ؟ قراءةَ القصص الأدبية الهادفة .

كل هذه الصيغ للطلب فأيها أجمل فى حديثك لصديق ؟ ولماذا ؟

(٤)

قال قَطَرِىُّ بنُ الفُجاءَة :

فصبرًا فى مجال المــوت صَبْرًا ... فمانيــلُ الخلودِ بمستطاع

وقال المتنبى :

كذا فَلْيَسر من طَلَــب الأعادى ... ومثل سُراك فليكن الطلابُ

وقال الشاعر :

أرينى جوادا مات هُــزْلا ، لعلنى ... أرى ما تَرَيْن أو بخيلا مخلدا

وقال آخر :

عليك نفسك هذبها ، فمن ملكت ... زمامه النفس عاش الدهرمذموما

(ا) بين صيغة الأمر فى كل مثال مما تقدم .

(ب) وضح الغرض البلاغىّ منه ، وسر جماله .

(٥)

قال تعالى :

« إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ(١) يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ(٢) إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »(٣) .

---

(١) مصهور المعادن .

(٢) اجذبوه جذبا عنيفا .

(٣) سورة الدخان . الآيات : (٤٣ — ٤٩)

(ا) فى الآيات أوامرُ متعددة . عينها .

(ب) بين الغرضَ البلاغىَّ من كل أمر ، وسرَّ الجمالِ فيه .

(٦)

قال أبو العلاء :

صاحِ هذى قبورُنا تملأ الرحْـ ب ، فأينَ القبورُ من عهد عاد؟
خفف الوطءَ ، ما أظن أديمَ الـ أرْض إلا من هذه الأجسادِ
وقبيح بنا وإن قَدُمَ العهـ دُ هَـوانُ الآباء والأجدادِ
سر إن اسطعت فى الهواءِ رُويدا لا اختيالاً على رُفاتِ العبادِ

(ا) ضع عنوانا يلخصُ فكْرةَ الأبيات .

(ب) ما العاطفةُ المسيطرةُ عليها ؟

(ج) ما الغرضُ البلاغى من الأمرِ فيها ؟ وما سر جماله فى ضوءِ القرائنِ المحيطة به ؟

(٧)

لأبى القاسمِ الشابّى من قصيدته (إلى طغاة العالم) :

حـذار فتحتَ الرماد اللهيبُ ومن يَبذر الشوكَ يجنِ الجراح

(ا) اشرح البيت بأسلوبك .

(ب) بيّنْ صيغةَ الأمر ، ثم وضح الغرضَ البلاغىَّ منه .

٣ـ النهى وأغراضه البلاغية

١ ـ قال تعالى :

« لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَالَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنَا ، وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

٢ ـ وقال إسماعيل صبرى على لسان فرعونَ يخاطبُ المصريين :

لا تقرَبُوا النيل إن لم تعملوا عملا ... فماؤه العذبُ لم يُخلق لكسلانِ
رِدُوا المَجرَّة كَدّاً دون موردِه ... أو فاطلبُوا غيرَه ريا لظمآنِ
لا تتركُوا مستحيلاً فى استحالته ... حتى يُميط لكم عن وجه إمكانِ

٣ ـ وقال الشاعر :

لا تطلب المجدَ إن المجدَ سُلَّمُه
صَعْبٌ ، وعِشْ مستريحا خالى البالِ

٤ ـ وللمتنبى فى سيفِ الدولة :

نَفَتْ رُقَادَ علىٍّ عن محاجرِه
نفسٌ يُفَرِّحُ نفساً غيرَها الحُلُمُ
لا تطلبَنَّ كريما بعد رؤيته
إن الكرامَ بأسخاهم يدا خُتِمُوا

(١) سورة البقرة • الآية الأخيرة •

ولا تبالِ بشعرٍ بعد شاعره
قد أفسدَ القول حتى أُحمِدَ الصمَم

٥ — وللخنساء في أخيها صخر :

أعينيَّ جودا ولا تجمُدا ألا تبكيان لصخر الندَى !
ألا تبكيانِ الجوادَ الجميلَ ألا تبكيان الفتَى السيدا !

التوضيح

ارجع إلى الأمثلة السابقة ، وانظر إلى أُسلوب النهى فى كل منها ، وحاول أن تتعرفَ الغرضَ الأدبيَّ الذى سيق فيه .

تأمل الآية الكريمة (١) تجد أنها تطالعك بموقف المؤمنين المخلصين يتجهون إلى الله تعالى مبتهلينَ إليه : « ربنا لا تؤاخذْنا إن نسينا .. مالا طاقةَ لنا به » ، وتجد أن النهيَ فيها ليس على حقيقته ، لأن اللهَ تعالى أعلى من أن يوجَّهَ إليه نَهى ، وإنما الغرضُ منه « الدعاءُ » ، بما وراءَهُ من خشوع وضَراعة .

وفى النموذج الثانى لإسماعيل صبرى ترى فرعونَ ينهى المصريين أن يشربوا من ماءِ النيل إن لم يقدِّموا عملا عظيما ، يُصبحون به جديرينَ أن ينتسبوا إليه ، كما ينهاهم عن أن يتركوا مستحيلاً دون أن يحوِّلوه ممكنا بجدِّهم ومثابرتِهم .

وهو يحمِّلُ هذا النهيَ معنى « الحث » على الانطلاقِ إلى العمل ، والتغلب على الصعابِ بالمحاولة والكدح والجلد .

وفى النموذجِ الثالث ترى الشاعر يَنْهى من يخاطبه أن يعنِّيَ نفسه بطلبِ المجد ، ويتْبع ذلك تعليلا يبين فيه أن طرق المجد صعبةٌ ؛ فمِنَ الخير له أن يدعَها ، ويركنَ إلى الراحة وهدوءِ البالْ . ومن

اليسير أن تُدْرِكَ هدفَ الشاعر من هذا النهى ، فانه يَحمِلُه معنى « التحقير » مع سخريةٍ وتهكم ؛ لأن المخاطبَ — فيما يرى الشاعرُ — أقل من أن تكونَ له همة تدفعُه إلى معالى الأمور .

وفى النموذجِ الرابع تَقِفُ أمام أبيات للمتنبى ، يمدحُ فيها سيفَ الدولة بأنه يحمِلُ نفساً عاليةً ، نفتْ عن عينيه النَّومِ بطموحها، وعدمِ انخداعها بالأمانىِّ والأحلام ، وينهى فيها عن أن يطلُبَ أحد إنسانا كريما بعد سيف الدولة ؛ لأن سخاءَه قد بلغَ الغايةَ ، وينفذُ من خلالِ ذلك إلى نَهْىٍ آخر ، يطلب فيه ألا يبالى أحد شاعرًا مابعد شاعر سيف الدولة ، وهو المتنبى نفسُه قائلُ الأبيات ؛ لأن الشعر — فيما يرى — قد هوى على يد غيره إلى درجة أصبح الصممُ معها محمودا .

وبنظرةٍ متأملة ترى أن النهى فى البيت الثانى يحمِلُ معنى « التيئيس » من أن يبلغَ أحد مبلغ سيف الدولة فى كرمه ، مع مافيه من تعظيمٍ له ، وأنه فى البيت الأخير يحملُ معنى الفخر ؛ ففيه يفتَخرُ الشاعرُ بنفسه ومكانتهِ الشعريةِ فخراً يبلغ حدَّ الإسرافِ والمغالاة .

وفى النموذجِ الخامسِ تقف أمام بيتين للخنساءِ ، تنهى فيهما عينيها أن تجمُدَا عن البكاءِ على أخيها صخر ، وتدهشُ لأنهما لم تُسعفَاها بالدمعِ عليه ، وهو أحبُّ الناس إليها ، وأغلاهم عندها بأخوَّتهِ ، وجودهِ ، وفتوتهِ ، وجمالهِ ، وسيادته .

ومن هذا الجوِّ الحزين الحائرِ يتضح لك أنه نهى يحمل معنى الحسرة بما وراءَها من حيرةٍ وذهول .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين :

١ — أن النهي الأدبي يأتي لأغراض بلاغية ، منها : الدعاء ، والحث ، والتحقير ، والتعظيم ، والتيئيس ، والفخر ، والتحسر ، مع ما يحتف بهذه الدلالات من مشاعر وأحاسيس .

٢ — هذه الأغراض ليست محدودة ، ولكنها تتنوع بتنوع المشاعر والجو النفسي المسيطر على القائل .

٣ — يمكن إدراك هذه الدلالات والمشاعر في ظل الجو النفسي الذي سيق فيه النهي ، ومن السياق والقرائن التي تحيط به .

٤ — سر جمال النهي أنه ينقل القارىء إلى ماوراء المعنى اللغوي من دلالات وإيحاءات ، وفي هذه الانتقالة إثارة للانتباه ، مع ماتضفي هذه الدلالات والإيحاءات على الكلام من ثراء وقوة وتأثير .

تمرينات

(١)

من رسالة لعمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وقد أمره على حرب العراق :

« ترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ؛ حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ؛ فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ... ونح منازلهم

عن قرى أهل الصلحِ والذمة ، فلا يدخُلنَّها من أصحابك إلا من تثقُ بدينه ، ولا يَرْزأْ (١) أحداً من أهلها شيئاً » .

(أ) ماذا تضمنت هذه القطعةُ من الوصايا الحربية ؟ .

(ب) عين أسلوبَ النهى فيها ، وبين الغرض منه .

« ٢ »

لأبى فراسٍ يخاطبُ سيفَ الدولة :

ولا تتقلدْ ما يروقك حمله
تقلدْ إذا حاربتَ ما كان أقطعـا

ولا تقبلنْ القولَ من كلِّ قائلٍ
سأرضيكَ مرأًى لستُ أُرضيك مسمعا

فلله إحسان على ونعمةٌ
ولله صنعٌ قد كفانى التَّصنُّعا

(أ) ماذا يطلبُ أبو فراسٍ من سيفِ الدولةِ فى الأبيات ؟ .

(ب) عين أساليب النهى فيها .

(ج) فى الأبيات تعريضٌ . فكيف تفهمَ ذلك منها ؟ .

(٣)

للشابِّى :

رويدَك لا يخدعنّك الربيع وصحوُ الفضاءِ وضوءُ الصباح
ففى الأفقِ الرحب هولُ الظلامِ وقصفُ الرعودِ وعصفُ الرياح

---

(١) لايرزأ : لاينقص .

(ا) اشرح البيتين بعبارتك

(ب) ما الغرض البلاغيُّ من النهيِ فيهما ؟

(ج) ما سرُّ جمال هذا النهي في ضوءِ القرائن المحيطةِ به ؟

(٤)

لشفيق جبرى من قصيدته (انتفاضة العرب) يخاطبُ الأمة العربية :

مهلاً فلا تيئَسِنَّ اليومَ إن عبَسَتْ
لك الليالى ، وإن ماجَتْ بِكِ الظُّلَمُ
ماضرَّ موكبَكِ الجرَّارَ أن طرَحُوا
صخْرًا على دربه فالصخرُ ينحطمُ

(ا) عين أسلوبَ النهي في الأبيات .

(ب) بين الغرض منه ، وسرَّ جماله .

(٥)

قال تعالى :

« ربَّنَا إننا سمِعْنا مناديًا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم ، فآمَنَّا ، ربنا فاغفِرْ لنا ذُنوبنَا ، وكفِّرْ عنا سيئاتِنا ، وتوفَّنا مع الأبرار . ربنَا وآتنَا ما وَعَدْتنَا عَلَى رُسُلك ، ولا تُخْزِنَا يَوْمَ القيامةِ إنك لا تخلِفُ الميعاد (١) » .

(أ) عين أساليب الأمر والنهي في هذه الآيات .

(ب) بين الغرض البلاغيَّ منها ، وما تَحْمِلُ من مشاعر .

(١) سورة آل عمران . الآيتان (١٩٣ ، ١٩٤) .

(٦)

للقاسم الحريرى :

لا تَقْعُدَنَّ على ضُرٍّ ومَسْغَبَةٍ
لكى يقالَ : عزيزُ النفسِ مُصْطَبِرُ
وانظُرْ بعينك هل أرضٌ معطَّلةٌ
من النباتِ كأرضٍ حفَّها الشجر ؟
واستنزل الرِّىَّ من دَرِّ السحاب ؛ فإن
بَلَّت يداك به فَلْيَهْنِكَ الظَّفَرَ

(أ) إلام يدعو الشاعرُ فى الأبيات ؟ .

(ب) بيِّن أنواعَ الإنشاءِ فيها .

(ج) تحدثْ عن أغراضِها البلاغيةِ فى ضوءِ القرائنِ المحيطة بها .

(د) بين رأيك فيها من الناحيةِ الجماليةِ .

٤ — النداء

(أ)

١ — لهاشمِ بن عبد مناف :

« يا معشرَ قريش . أنتم سادةُ العرب : أحسنُها وجوهاً ، وأعظمُها أحلاماً ، وأوسطُها أنساباً ، وأقربُها أرحاماً » .

٢ — لأُمامة بنتِ الحارث :

« أىْ بُنَيَّةُ . إنَّ الوصية لو تُرِكَتْ لِفضلِ أدبٍ تُرِكت لذلك منكِ » .

٣ — كتب والدٌ لولدٍ ينصحه :

أَحُسَيْنُ إنِّى واعظٌ ومؤدِّبٌ

فافْهَمْ فإنَّ العاقلَ المتأدِّبُ

٤ — لأبى تمام يخاطب الخليفة المعتصم بعد فتح عَمُّورية :

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها

للنار يوماً ذليلَ الصخر والخشبِ

غادرت فيها بَهيمَ الليلِ وهْوَ ضُحىً

يَشُلُّه وَسْطَها صُبْحٌ من اللهبِ

(ب)

١ — للمتنبى يخاطب الحُمَّى :

أبِنتَ الدهرِ عندى كلُّ بنتٍ

فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ ؟

جَرَحتِ مُجَرَّحاً لم يَبقَ فيه

مكانٌ للسيوفِ ولا السهامِ

٢ ــ لعبد الرحمن الكيالى :

أنا يا أخى العـربىَّ سهـ
ـرانٌ وتحت يدى سلاحى
أنا يا أخى العـــربى قد
أعددتُ نفسى للـكفاح

٣ ــ لإيليا أبى ماضى :

يا أخى لا تَمِلْ بوجهك عنّى
ما أنا فحمـةٌ ولا أنت فرْقدْ
أنت لا تأكلُ النُّضارَ إذا جُعْـ
ـتَ ، ولا تشربُ الجُمانَ المُنَضَّدْ

٤ ــ لحافظ إبراهيم فى رثاء مصطفى كامل :

أيَا قَبْرُ هذا الضَّـيفُ آمالُ أُمَّةٍ
فَهَلِّلْ ، وكبِّرْ ، والْقَ ضيفَكَ جاثيا

التوضيح

تأمَّلْ الأمثلة السابقة فى المجموعة (ا) وقِفْ عند كلِّ مثالٍ بها . لتتعرَّف موقفَ النداء فيه ، والغرضَ منه .

انك تجد النداءَ فى المثال الأول بلفظة « يا » ، وهى لنداء البعيد ، وفى المثال يدعو هاشمُ بنُ عبـد منـافٍ قريشا أن تقبل عليه ، لتتحدثَ إليها ، ومثل هذه الجماعة الكبيرة تناسبها « يا » ، بما فيها من امتداد الصوت .

وفى المثال الثانى ترى أُمامةَ بنت الحارث توصى ابنتَها عنـد زواجها ، وهى قريبة إليها ، حبيبة إلى قلبهـا ؛ ولذلك استخدمتْ حرف النداء « أى » الذى يدلُّ على القرب

وإذا انتقلت إلى المثال الثالث رأيت النداء موجَّهاً من أبٍ لابنه؛ ولهذا استُخدمتْ فيه الهمزة، التي تدلُّ على القُرب أيضا.

وفي المثال الرابع ترى أبا تمام يُخاطِب الخليفةَ المعتصم، مستغنياً عن أداة النداء، لأنه ماثلٌ في القلوبِ، ببطولته، وعظمته، وجهاده، فهو قريبٌ غاية القُرب.

ومن ذلك ترى أن هناك أداة لنداء البعيد هي « يا »، وأدوات لنداء القريب منها: « أي » والهمزة، ومثل ذلك النداء بغير أداة.

***

فإذا انتقلتَ إلى أمثلة المجموعة « ب » وجدتَ المتنبي في المثال الأول يُخاطب الحُمَّى، وهي تَسكنُ جسمَه، فتُمِضُّه، وتوسِعُه إيلاما وسَقَماً، وهو كما ترى نداء يحمل المرارة والضيقَ والضَّجَرَ بها، حتى إنه يجعلها بنتَ الدهر، لأنها إحدى نوازله.

وفي المثال الثاني لعبد الرحمن الكيالي تُحِسُّ أن النداء « يا أخي » يُعَبِّرُ عن الوُدِّ والحُبِّ وعن الرابطة القوية بين العربيِّ والعربيِّ.

وفي المثال الثالث لإيليا أبي ماضي تجد أن النداء « يا أخي » يحملُ معنىً جديداً، ففيه تُحِسُّ العَتْبَ الشديد على صَلَفِ الإنسان الذي يَتِيه كِبْراً وزَهْواً.

وفي المثال الأخير لحافظ إبراهيم ترى النداء للقبر، وهو نداء يحمل غاية الأسى والحسرة على فقيد مصر « مصطفى كامل »، والشعور بجلاله وعظمته، حتى إنه يدعو القبر أن يلقاه جاثيا.

***

وهكذا تعرف:

١ — أن النداء لطلب الإقبال.

ب ــ أن له أدوات متعددة ، منها ماهو لنداء البعيد ، وهو « يا » و « أيا » .

ومنها ماهو لنداء القريب كأىْ ، والهمزة .

وقد يكون النداء بغير أداة من هذه الأدوات للدلالة على القرب أيضا .

جـ ــ قد يُنادى البعيدبأداة القريب ، كأن تقول لغافلٍ بجانبك :
« يا غافلاً إن رَكْبَ الحياة لاينتظر الخاملين » ، أو يُنـادَى القريبُ بأداة البعيد ، للدلالة على عُلُوِّ شـأنه ، وجلاله ، مثل :
« يارَبُّ أنت الملجأُ والمُعِين » .

د ــ قد يخرج النداء عن معناه الأصلى : مجرد طلب الإقبال إلى معانٍ أخرى ، تُفْهَمُ من السِّياق ، والجوِّ الشُّعُـورىِّ الذى يحمله الكلام . ومن ذلك ــ كما مرَّ بك ــ أنه يكون لإظهار الألم ، أو لإظهار الحب والإخلاص ، أو للعَتْب والزَّجْر ، أو للتحسُّـر والأسى ، الى غير ذلك من المعانى ، التى يُوحى بها الكلام .

تدريبات

١ ــ بَيِّنْ أداةَ النداء ومعناها فى الأمثلة الآتية :

ا ــ قال تعالى :
« يا أيها الناسُ إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم شُعُوباً وقبائلَ لتعارفُوا ، إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم » (١)

ب ــ أىْ بُنَىَّ ، كُنْ لغيرك كما تُحِبُّ أن يكون غيرُكَ لك .

جـ ــ هَيا رَجُلَ الإسعاف أَدْرِكِ المُصاب .

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٣)

د — أخالدُ ، أصلحْ عيبَكَ قبلَ أن تنظر فى عيوبِ الناسِ .

٢ — خرجت أداة النداء فيما يأتى عن معناها الأصلى ، فما المعنى الذى خرجت إليه ؟ وما السرُّ البلاغىُّ فى ذلك ؟

ا — لعلى محمود طه :

إيهٍ يامصرُ خذِى ماشئتِه
ولداعِى المجدِ منّا ما يشاءُ

ب — لأحد الشعراء :

أيا ربُّ قد أحسنْتَ عوْداً وبدأةً
إلىَّ فلم ينْهضْ بإحسانكَ الشكْرْ

٣ — فيما يأتى نماذجُ للنداء خرجت عن معناها الأصلى ، فماالغرض البلاغىُّ من النداء فيها :

ا — لأبى الطيّب المتنبى :

عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدْتَ يا عيدُ
بما مَضَى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ ؟!

أمّا الأحبةُ فالبيداءُ دونهمُ
فليت دُونكَ بيداً دونها بيدُ

ب — لشوقى فى محمد فريد :

فريدُ ، ضحايانا كثير ، وإنما
مجالُ الضحايا أنتَ فيه فريدُ

فما خلفَ ماكابدتَ فى الحقِّ غايةٌ
ولا فوق ماقاسيتَ فيه مزيدُ

حـ — وله فى مصطفى كامل :

يا صبَّ مصرَ ، ويا شهيدَ غرامِها
هـذا ثرَى مصرٍ ، فنَمْ بأمانِ

د ــ ولأبى القاسم الشابىّ :

ألا أيها الظالمُ المستبدُّ

حبيبُ الفناءِ عدوُّ الحياه

سخِرتَ بأنّاتِ شعبٍ ضعيفٍ

وكفُّكَ مخضوبةٌ من دماه

هـ ــ لعبد العزيز المقالح الشاعر اليمنىّ فى أبطال العبور :

ياعابرَ البحرِ . ما أبقى العبورُ لنا

وما عسى تصنعُ الأشعارُ والصوَرُ ؟!

٥ ــ التمنى

١ ــ قال تعالى :

« قال الذين يريدون الحياةَ الدنيا : يا ليتَ لنا مثلَ ما أوتِيَ قارونُ ، إنه لذو حظٍّ عظيم » (١)

٢ ــ وقال تعالى :

« وترَى الظالمين لمّا رأَوُا العذابَ يقولون : هل إلى مرَدٍّ مِن سبيل ؟ » (٢) !!

٣ ــ وقال جرير :

ولّى الشبابُ حميدةٌ أيامُه

لو كان ذلك يشترَى أو يرجعُ !!

٤ ــ وقال على محمود طه :

أيتها المحزونةُ الباكيه

لا تيأسى من رحمة المنقذِ

---

(١) سورة القصص الآية ــ ٧٩ .

(٢) سورة الشورى . الآية ــ ٤٤ .

لعلَّ من آلامك الطاغيه

إذا دعوتِ الله مِن منقذ !

***

تأمَّلِ الأمثلةَ السابقة وقِفْ منها عند الآية الأولى ، إنها تُحدِّثك عن قصة قارون ، وما بلغ من ثراء عريض ، جعل بعض مَن فَتَنَتْهم الدنيا يتمنَّوْن أنْ لو كان لهم مثلُ ما لقارونَ من حظ عظيم . والأداة التى أفادت التمنى هنا ، هى « ليت » ، وهى الأداة الأصلية للتمنِّى ، وتُستخدم فى طلب الشىء المستحيل ، أو البعيد الذى يصعب الوصول اليه .

وحين تنتقل الى الآية الثانية ترى أن الظالمين حين أُلْقُوا فى جهنم ، واصْطَلَوْا بنارها ، تجسَّد أمام أعينهم الندم ، لِمَا فرَّطوا فى جَنْبِ الله ، وهم لذلك يتمنَّوْن أنْ لو عادوا إلى الدنيا مرةً ثانية ، حتى يُتاح لهم أن يتداركوا مافاتهم فيها من طاعة الله ، والعمل لمرضاته . وأداة التمنى هنا ليست هى الأداة الأصلية ، وإنما هى أداة أخرى ، وهى « هل » التى استُخدمت للتمنى ؛ لتدلَّ على تعلُّقهم بالعودة ، وإظهارها فى صورة الشىء القريب الممكن .

وفى المثال الثالث ترى جريراً قد ودَّعَ الشباب ، واستقبل الشيخوخةَ بضعفها ووَهَنها ، وهو لذلك يأْسَى لأيام الشباب ، التى وَلَّتْ ، ويتمنَّى أنْ لو عادت بأية وسيلة ، وأداة التمنى هنا أيضاً ليست هى الأداة الأصلية له ، وإنما هي « لو » التى استُخدمت فى معناه ، لإبرازه فى صورة الشىء العزيز النادر .

وفى المثال الأخير ترى الشاعر يتحدث إلى هذه المحزونة الباكية ، محاولاً أن يُزحزح الأسى عن قلبها ، وأن يفتح طريق الأمل لها ، مستخدما أداةً للتمنى هى « لعلَّ » ، وهى غير الأداة الأصلية

كذلك ؛ لأنها تدلُّ على الترجِّى ، وقد استُخدمت هنا لإظهار أمَلِ المرأةِ المحزونة ، فى صورة الشىء القريبِ الممكن .

ومن ذلك يتبين لك :

ا ـ أن التمنِّى طلبُ أمرٍ محبوبٍ ، مستحيل ، أو شديد البُعْد .

ب ـ أداة التمنى الأصلية هى « ليت » .

جـ ـ تستعمل فى التمنى أدوات أخرى لأغراض بلاغية ، وهـذه الأدوات هى : هل ، ولعلَّ ، ولو .

و « هل ولعلَّ » لإظهار المتمنىَّ قريباً ممكناً ، وذلك لشدة الحرص عليه ، وفَرْطِ التعلّق به .

أما « لو » فتأتى لاظهاره بعيداً نادر الحدوث .

تمرينات

١ ـ بيِّنْ التمنِّى وأداته فيما يأتى :

ا ـ لجميل :

ألا ليتَ أيامَ الصـفاءِ جـديدُ
ودهراً تولَّى يا بُثَيْنَ يعودُ !

ب ـ وله أيضا :

ألا ليتَ شعرى : هل أبيتنَّ ليلةً
بوادي القِرَى ؟ إنّى إذن لسـعيدُ

جـ ـ ولمالك بن الرَّيْبِ التميمى ، وقد أحَسَّ قُرْبَ منيَّته :

ألا ليتَ شِـعْرِى : هل أبيتَنَّ ليلةً
بِجَنْبِ الغَضَى (١) أُزْجِى القِلاصَ (٢) النواجيا ؟

(١) الغضى : نوع من الشجر .
(٢) القلاص : النوق الفتية جمع قلوص .

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

٢ — بيّن التمني فيما يأتي ، والغرض البلاغي من استخدام الأداة منه :

ا — قال تعالى :

« ياهامان ابن لي صرحا لعلّي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطّلع إلى إله موسى » (١)

ب — وقال ابن الرومي :

أأيام لهوى ، هل مواضيك عوّد ؟!
وهل لشباب ضلّ بالأمس منشد ؟!

جـ — وقال مسلم بن الوليد :

واها لأيام الصبا وجماله
لو كان أسعف بالمقام قليلا

٣ — تصوّر شيئا محبّبا إليك ، يتعلق قلبك به ، ويصعب الوصول إليه ، وعبّر عنه بأسلوبك مستخدما الأدوات الآتية : لعل ، هل ، لو .

---

(١) الكلام على لسان فرعون .

التقديم والتأخير

مرّ بك أن الجملة في اللغة العربية لها نظام خاص في ترتيب أجزائها ؛ فالجملة الاسمية : يتصدرها المبتدأ ، ويليه الخبر ، ثم ما تعلق به .

والجملة الفعلية تبدأ بالفعل ، ثم يأتي الفاعل ، والمكملات مثل :

الشعوبُ المستعبدة ماضيةٌ في طريقِ التحرر .

ظفِرتْ أكثرُ الشعوبِ بحريتِها خلالَ القرنِ العشرين .

ولكنك أحياناً ترى بناءَ الجملة قد جاءَ على غير النسقِ المألوفِ فيها ، فتقدّمَ ما كان حقه أن يتأخرَ ، وتأخرَ ما كان حقه أن يتقدم ؛ وذلك لأغراضٍ بلاغيةٍ يؤدّيها التقديمُ والتأخير . انظر الأمثلة الآتية :

(١)

١ — قال تعالى :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ؟)[١] .

٢ — وقال سليمان العيسى :

لي موطني لا للدخيـــل ولي بأزهاري عبيري

---

(١) سورة سبأ : الآيتان (٣١ ، ٣٢) .

في هذه الجنات والـ أنهار في وطني الكبير

٣ ــ ومن الشعر الوطني :

إلى كلِّ طاغٍ يَمَسّ الحدود سَنَمْضي ونحن الأسود الجياع

٤ ــ وقال ابن الرومي :

ضلَّةٌ لامرئٍ يشمِّرُ في الجمـ

ـعِ لعيش مُشَمِّرٍ للفناء

دائبـاً يكنزُ القناطيرَ للوا

رث ، والعُمْرُ دائبٌ في انقضاءِ

٥ ــ وقال تعالى :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(١) .

(ب)

لأبي طالب وقد تقدمَ يطلبُ يدَ خديجةَ لابن أخيه محمد (صلّى الله عليه وسلّم) :

« الحمدُ لله الذي جعَلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراما ، وبيتا محجُوجا ، وجعلنا الحكامَ على الناس ثم إن محمدَ بن عبد الله ابن أخي من لا يوزَنُ به فتىً من قريْش إلاّ رجحَ عليه بِرّاً ، وفضلاً ، وكرماً ، وعقلا ، ومجداً ، ونبلا . وإن كان في المال قلّ فالمال ظلٌّ زائلٌ ، وعاريّةٌ مسترجَعَةٌ ، وله في خديجةَ بنت خويلدٍ رغبةٌ ، ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتم من الصداق (٢) فعليّ » .

---

(١) الفاتحة : الآية (٥) .

(٢) الصداق : المهر .

للفيتوري :

إنْ نكن سرنا على الشوك سنينا ... ولقينا من أذاه ما لقينا
إن نكن بتنا عراةً جائعينا ... أو نكن عشنا حفاةً بائسينا
إن نكن قد أوهت الفأْس قوانا ... فوقفنا نتحدى الساقطينا
إن يكنْ سخّرنا جلادُنا ... فبنينا لأمانينا سجونا
ورفعناهُ على أعناقنا ... ولثمْنَا قدميه خاشعينَا
وملأْنا كأسَهُ من دمنَا ... فتساقانا جراحاً وأنينا
وجعلنا حَجرَ القصرِ رءوسا ... ونقشناهُ جفوناً وعيونَا
فلقد ثرْنَا على أنفسنَا ... ومحوْنا وصمة الذلّة فينا

التوضيح

عد إلى النماذج المتقدمة ، وتأملْ فيها تجدْ أنك فى كلٍّ منها أمام تقديمٍ وتأخيرٍ من النوع الأدبى :

ففى النصّ القرآنى رقم (١) من المجموعة (ا) ترى تصويراً لحال الكفارِ فى الآخرة ، وهم يتلاومون ، ويلْقى بعضُهم على بعض تَبِعةَ ماصار إليه أمرهم ؛ فالمستضعفون يتهمون المستكبرين بأنهم هم الذين أضلّوهم ، وساقوهم إلى هذه النهاية الأليمة ، والمستكبرون يَتنصّلون مما يرمونهم به ، وينكرونَه قائلين : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذْ جاءَكم ؟ .

وإذا نظرت إلى هذا الاستفهام تجد أن لفظة « نحن » قد تقدّمت على الفعل « صددنا » ، والسرُّ البلاغىُّ فى تقديمها أن المستكبرينَ فى

هذا الموقف الرهيبِ مهتمون بأنفسِهم ، حراص على نفى الجريمةِ عنها .. ولهذا تلت « نحن » همزة الاستفهام .

وفى قول سليمانَ العيسى ترى الشاعرَ قد أتى بالجارِّ والمجرور (لى) مرتين فى البيت الأول ، وكل منهما خبر ، وفى كلِّ مرة يتقدم الخبرُ على المبتدإِ .

وفى هذا التقديم جمالٌ بلاغىٌ ؛ لأن الشاعرَ يريدُ أن يقررَ فى الأذهان أن وطنَه خاصٌّ به ، وأن كلَّ مافيه : من ترابِه ، وجناته ، وأنهاره ، وعبيرِ زهرهِ ملك خالص له لا للدخلاءِ ، وأن كل من ينازعه شيئاً من ذلك معتدٍ غاصبٍ .

وفى المثال رقم (٣) ترى أن الشاعِرَ قدَّم الجار والمجرور : « إلى كل طاغٍ » على الفعل « سنمضى » ، مع أنهما متعلقان به ، والمألوف أن يأتِيَا بعدَه .

والسببُ فى هذا التقديم أن مايثيرُ غضبه هو هذا الطاغى الذى تُحدِّثُه نفسُه أن يمس الحدود ؛ ولهذا يعجِّلُ بذكره مقترنا بالتهديدِ الذى يتضمنهُ البيت .

وفى بيتى ابن الرومى ترى أن الحالَ « دائبا » تقدمت على الفعلِ « يَكنِزُ » وقد قدَّمها الشاعرُ عليه ؛ لأن تقديمَها يُصَوِّرُ الحرصَ البالغَ على جمع المال ، ويزيدُ من ملامح الصورةِ الساخرةِ التى يعرضُها ابن الرومى لغفلة الشحيح ، وصغَرِ عقله .

وفى النموذجِ الأخيرِ من هذه المجموعةِ (ا) ترى أن المفعول به

تقدُّمُ على الفعل ، وأن الغرض من تقديمه الدلالةُ على أن العبادةَ لله وحدَه ، وأن الاستعانةَ الحقيقية إنما تكونُ به دون سواه .

ولعلك لحظتَ أن التقديمَ فيما سبق لايعدو أن يكون في جزءٍ من أجزاءِ الجملة كالفاعِل ، أو الخبر ، أو المتعلق ، أو التكملة .

انتقلْ إلى خطبة أبي طالب تجد نفسَك أمام نوعٍ آخر من التقديم ، ليس في جزءٍ من أجزاءِ الجملة ، وإنما هو في عرضِ الموضوع ؛ فأبو طالب يطلبُ يدَ السيدةِ خديجةَ إلى ابن أخيه محمدٍ عليه السلامُ ، ولكنه لا يدخلُ في الموضوع مباشرةً ، ولا يواجهُ بالفكرة ، بل يتأتّى لها ؛ حتى يقنعَ بها ، لأنه يعلمُ فيما يعلمُ ، أنَّ خديجةَ من شريفات قريش ، وأن لها من الثراءِ ما ليس لغيرها ، وأنها أمنيةُ كثيرٍ من سَرَاة القرشيِّين .

انظر إليه . لقد بدأَ يتحدثُ عن نسب بني هاشمٍ آل محمد ؛ فإذا هو خيرُ نسب ؛ لأنهم من ذُرِّية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وانتقلَ إلى منزلتهم في مكةَ ؛ فإذا هي خيرُ منزلةٍ ؛ لأنهم سدنةُ الكعبة ، والقائمون بأمر البيت الحرامِ ، ولهم الحكمُ في الناس ، ثم تحدثَ عن محمد ؛ فإذا هو خيرُ فتىً في قريش ؛ لأنه ليس من فتيانها من يساويه في برِّه ، أو فضله ، أو كرمه ، أو عقله ، أو مجده ، أو نبله .

وإذ بلغَ ذلك من نفوس السامعين — اعتذرَ عن قلة ماله بأن المالَ ظل زائلٌ ، يكون حيناً ، ولا يكون حيناً آخر ، ثم عرض بعدَ ذلك كلّه موضوع الخطبة .

ولاشك أن جمالَ هذا التقديمِ نابعٌ من اقترانه بشعور أبي طالبٍ ،

ومن تقديره للموقف ، ومن انتقالاته التي ملك بها أزمَّة النفوس ، فكان له ما أراد .

ومثل هذا التقديم يكون في عرض الموضوع النثرى ، ويكونُ في عرضِ الموضوع الشعرى ، كما في أبيات الفيتورى ؛ ففيها يعرضُ فظائعَ الاستعمار في صور تتوالَى كما تتوالى صورُ المأساةِ حزينةً دامية .

سارَ أهلُ إفريقيَّةَ دهراً بين أشواك الحياة بعبوديَّتها ، وذلتِها ؛ وحرمانها ، وقاسَوا الآلامَ منها .

كان ليلُهم للعُرْىِ والجوع ، ونهارهم للبؤْس والحفاءِ .

كانت الفأسُ التي يضربونَ بها الأرض في خدمةِ جلَّادِهم تُوهِي قواهم ، ومع ذلك لا يُلْقُونها من أيديهم .

كانَ هذا الجلادُ يُسخِّرُهم ، فيخضعونَ له ، وقد انطَوَوْا على نفوسهم ، وقبرُوا فيها أمانيَّها .

كانوا يمجِّدُون هذا الجلادَ ، فيحملونه على الأعناق ، ويخرُّون له خاشعين ، ليَلْثَمُوا أقدامه .

كانوا يقدِّمون له الدماء ، ليملأَ منها كأْسه ، ويحتسيها مستمتعاً بأنينهم وجراحهم . بَنَوْا له قصراً من جماجمهم ، وجعلوا نَقْشَهُ من عيونهم وأجفانهم .

كان ذلك كلُّه ، وتحمَّلوا ذلك كلَّه ، والشاعرُ حريصٌ على أن يقدِّمَ هذه المآسيَ في هذا العرض الذي يتوالى به الشرطُ في الأبيات

حتى البيت الأخير ولا جواب له ، وفى هـذا البيت الأخير ، وبعد كل ماتقدم يأتى الجواب :

لقد ثاروا على الضعف فى نفوسهم ، وحطموا بهذه الثورة ماكانوا فيه من ذلة وهوان .

وقد لجأ الشاعرُ إلى هـذا المسلكِ الذى أخَّرَ فيـه الجوابَ ؛ ليعرضَ جرائمَ المستعمرينَ متتابعةً ، تستثيرُ القارىءَ ، وتدفعه إلى مشاركةِ الشاعر فى السُّخْط عليهم .. حتى إذا انتهى إلى آخر الأبيات أحسستَ إشراقةَ الأمل بما ذكرَ عن الثورة التى قَضَتْ على الضعف فى النفوس ، وعلى ماكانَ من ذلٍّ ومهانة .

والتقديم تراه واضحاً فى القصة ؛ فكثيراً مايقدِّمُ الكاتبُ بعض أجزائِها لغرضٍ فنى ، بل قد يأتى بالنهـايةِ باديءَ ذى بدءٍ ، ثمَّ يتبعُ ذلك أحداثَ القصة .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين :

١ ـــ أن الكلامَ قد يأتى على نظامه العاديِّ المألوف ، دونَ تقديمٍ أو تأخير .

٢ ـــ قد يتقدمُ ماحقه التأخيرُ ؛ كأن يتقدَّم الفاعلُ أو ماهو فى معنى الفاعل على الفعل ، أو يتقدمَ عليه المتعلِّقُ به أو إحدى المكملاتِ كالمفعول به ، والحال ، وكأن يتقدمَ الخبرُ على المبتدأ .

٣ ـــ كما يكون التقديمُ والتـأخيرُ فى الجملة يكونُ فى عرضِ الموضوعِ النثريِّ ، أو القصيدة ، أو القصة .

٤ – من الأغراض البلاغية للتقديم :

– إفادة الاختصاص .

– القصر .

– استثارة الانتباه إلى المتقدم ، والدلالة على اهتمام المتكلم به .

– التدرج في إقناع النفس بالمتأخر ، حتى تستقر إلى قبوله .

٥ – يجمل التقديم أو التأخير إذا صدر في ظل إحساس وجداني صادق ، وأثار من المشاعر والدلالات ما يجعله أقدر على إمتاع القارىء ، والتأثير في نفسه .

تمرينات

(١)

قال تعالى :

« وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عليك من قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا . إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ[1] » .

فيما تحته خط في الآيتين مواطن للتقديم . وضحها ، وبين الغرض البلاغي منها .

---

(١) سورة النحل : (الآيتان ١١٨ ، ١١٩) .

(٢)

زعم العربُ أن أرنباً التقطتْ تَمرةً ، فاختَلسها الثعلب ، فأكلَها فانطلقا إلى الضَّبِّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْل (١) . قال : سميعاً دعوتِ . قالت : أتيناك نختصم . قال : عادلا حكَّمتما . قالت : فاخرُج إلينا . قال : في بيته يؤتى الحكم . قالت : إني وجدتُ تمْرةً . قال : حلوةً فكليها . قالت : فاختَلسها ثُعالة (٢) . قال : لنفسه بغَى الخير . قالت : فلطمته . قال : بحقّكِ أخذت . قالت : فلطمني أخرى . قال : حرٌّ انتصف . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيتُ ، فذهبت أقواله أمثالا .

(أ) عين مواطن التقديم ، ونوعَ كلٍّ منها في القطعة السابقة .
(ب) بين ما أفاده التقديمُ في كلِّ موطنٍ ، ورأيكَ فيه .

(٣)

لأبي العلاء المعرّي :

ألا في سبيلِ المجد ما أنا فاعلُ … عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
أعنْدي وقد مارستُ كلَّ خفيّةٍ … يُصدَّقُ واشٍ أو يخيبُ سائلُ؟

(أ) اشرح البيتين مبيناً ما يفخرُ به الشاعر .
(ب) بين أسلوبَ التقديمِ فيهما ، والغرض منه .
(ج) وضح رأيكَ في هذا التقديمِ من الناحية الجمالية .

---

(١) الحسل : ولد الضب .
(٢) ثعالة : الثعلب .

(٤)

للشاعر كمال عبد الحليم :

هناكَ وفى فجوةٍ من جدار
وفوقَ الحطامِ وبين الدمار
وصوتُ الردى مثقلٌ بالغبار
أخى كانَ يحرسُ ضوءَ النهار
ومِدفعُه يصنعُ الإنتصار (١)

(أ) وضح بقلمك الصورةَ التى رسمها الشاعرُ فى الأبيات .

(ب) وضح التقديم فيها ، وبين نوعه .

(ج) ماذا فى هذا التقديمِ من جمال ؟

(٥)

لعلى محمود طه من قصيدته (طارق بن زياد) :

أشباحُ جنٍّ فوقَ صدرِ الماء
تهفو بأجنحةٍ من الظلماء
أم تلك عِقبانُ السماءِ وثبْنَ من
قُننِ الجبالِ على الخضمِّ النائى ؟
لابل سفينٌ لُحنَ تحتَ لواءٍ
لمن السفينُ ترى ؟ وأىُّ لواءِ ؟

---

(١) تقتضى صحة الوزن النطق بالهمزة فى كلمة (الانتصار) مع أنها همزة وصل .

ومن الفتى الجبارُ تحتَ شِراعِها
متربصــــــاً بالمـوج والأنْواءِ ؟
يُعلِى بقَبْضَتِه حمـائلَ سيفه
ويضمُّ تَحت الليـلِ فَضـل رداءِ
يابن القباب الحُمْر ويحكَ ! من رمى
بك فوق هذى اللجـة الزرقاء ؟
تغزو بعينَيكَ الفضـاءَ ، وخلفَه
أفقٌ من الأحـلام والأضواءِ
وتلفتوا فإذا الخضمُّ سـحابةٌ
حمراءُ مطبقةٌ على الأرجاءِ
وأتى النهـارُ وسار فيه طارقٌ
يبنى لمُلكِ الشَّرْق أىَّ بناءِ

فى الأبيات تقديمٌ يتدرَّج شيئا فشيئا حتى يضعَ أمامك صورةً واضحةً لعظمة طارق بن زياد . وضح ذلك .

الذكر والحذف

(أ)

وصف أحدُ جنود عمرو بن العاص قائدَه ، فقال :

« إنه بطلٌ مغوارٌ لايبالى بالشدائد ، ولا يخافُ الأهوال ، يجيد الضربَ بالسيف ، والطعن بالرمح ، ويُحسن الكرَّ والفرَّ ، ولايطيش لبّه ماضاق به الأمرُ .. وهو إلى ذلك محبٌّ للغناء ، مجيدٌ للقريض ودودٌ عطوف ، ليّنُ الجانب ، ولكنه إذا غضبَ للحقِّ أو خاضَ حومةَ الوغى صارَ كالأسدِ الهائجِ ، أو النارِ المتأججة فى اليومِ العاصف ، لا تُبقى ولا تَذَر .. »

(ب)

١ — قال تعالى :

« وَأَنَّا لاندرى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فى الأَرْضِ أم أَرَاد بِهِم رَبُّهُمْ رشداً(١) ؟ »

٢ — وقال تعالى :

« وقالوا لو كنا نَسْمَعُ أو نَعقِلُ ما كنا فى أصحاب السعير(٢) » .

٣ — ولجميل بن مَعْمَر :

إذا قلت مابى يابثَينَةُ قاتلى ‏ ‏ ‏ ‏ من الحبِّ قالت : ثابتٌ ويزيدُ

(ج)

١ — قال تعالى :

« أم اتخذُوا من دونِه أولياء فاللهُ هو الولىُّ ، وهو يُحيى الموتَى ، وهو على كلِّ شىءٍ قدير(٣) » .

---

(١) سورة الجن · الآية (١٠)
(٢) سورة الملك · · الآية (١٠)
(٣) سورة الشورى · الآية (٩)

٢ ـ وقال تعالى :

« وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا على النارِ فقالوا : ياليتَنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين[١] » .

٣ ـ وقال تعالى :

« مِمَّا خطيئاتِهِم أُغرِقوا ، فأُدخلوا ناراً فلم يجدُوا لهم من دونِ اللهِ أنصاراً[٢] » .

٤ ـ وقال :

« قال قد أُوتيتَ سُؤْلَكَ ياموسى . ولقد مَنَنَّا عليك مرةً أُخرى . إذ أوحينا إلى أُمِّكَ ما يُوحَى . أنِ اقذِفيه فى التابوتِ ، فاقذفيه فى اليَمِّ فَلْيُلقِهِ اليَمُّ بالساحِلِ يأخُذْهُ عَدُوٌّ لى وعدوٌّ له ، وألقيتُ عليكَ محبَّةً منى ، وَلِتُصنَعَ على عَيْنِي . إذْ تمشى أُختُكَ ، فتقول : هل أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كى تقرَّ عينُها ولا تحزن . .[٣] » .

التوضيح

الأصلُ فى بناءِ الجملة العربيةِ أن تُساقَ مستوفيةً أجزاءَها ، سواءٌ أكانت فعليةً أم اسميةً ، ولكن قد يحدثُ فى الكلامِ حذفٌ لأغراضٍ بلاغية ، ويمكنُ أن تتبينَ ذلك فى النماذجِ السابقة :

---

(١) سورة الأنعام . (الآية ٢٧) .
(٢) سورة نوح . (الآية ٢٥) .
(٣) سورة طه . (الآيات ٣٦ - ٤٠) .

انظر إلى القطعة رقم (١) التي يصفُ فيها الجنديُّ قائدَه عمرو بن العاص تجدْ أنها تَشتملُ على جُمَلٍ متعددة اسميةٍ وفعليةٍ ، وقد ذُكرتْ كلٌّ من هذه الجمل كاملة ، ولم يحذف منها شيءٌ ؛ ففي الجملة الأولى : « إنه بطل » تجد إن واسمها وخبرها ، وفي جملة « يجيدُ الضربَ بالسيف » تجد الفعلَ وفاعلَه المستترَ ، والمفعولَ ، ثم الجارَّ والمجرورَ الملحقين بالفعل ، وهكذا في بقية الجمل .

انتقل إلى أمثلة المجموعة (ب) وتأمل في الآية الأولى تجد أن الفعل مبنيٌّ للمجهول ، وأن الفاعل لم يُذكرْ في : (أشرٌّ أريد بمن في الأرض) ، وذكر في : « أمْ أراد بهم ربُّهم رشَدًا » فماذا وراء هذا الحذفِ من غرضٍ بلاغي ؟

إن الفاعل قد حُذفَ مع إرادة الشرِّ إجلالاً لله سبحانه وتعالى ، وإيماءً إلى أن الشر إنما يُصيبُ النَّاس بسبب مايرتكبون من آثام ، أما إرادة الخير لهم فقد أُسندَت إليه تعالى .

وفي الآية الثانية (لو كنا نسمعُ أو نعقل . . . السعير) تجد أن المفعول به قد حُذِفَ مع كلٍّ من الفعلين في هذا الاعتراف الذي سيق على ألسنة الكفار ؛ فهم لم يسمعوا الدعوةَ إلى الإيمان سماعَ وعْيٍ وتدبُّرٍ ، ولم يتفكروا في البراهين التي قدمت لهم ، وظلُّوا على كفرهم وعنادهم ، فاستحقُّوا عذابَ جهنم ، وقد جاء حذف المفعول في الحالين أبلغَ في الدلالة على المعنى وأشمل ؛ لأنه أفاد أنهم لم يسمعوا شيئًا ما ، ولم يعقِلُوا شيئاً ما ، حتى كأنما حُرِمُوا السمْعَ والعقلَ حرْمانًا تاما .

وفي قول جميلٍ نرى المبتدأ قد حُذفَ في (ثابتٌ ويزيد) أي

الحب ثابتٌ ويزيد ؛ ولهذا الحذف جمالُه ؛ لأنه يفيدُ أن الحبَّ الذى اشتدَّ بجميل حتى قتله لايعنى بثينةَ أن تَذْكُرَه ؛ لأنها مطمئنةٌ إليه ، واثقةٌ منه ، ولكنْ يعنيها أن تذكرَ أنه ثابتٌ لايتحول ، وأنه يزدادُ على الأيام قوةً وثباتا .

والحذفُ فى الأمثلة السابقة — كما رأيت — حذف فى لفظةٍ واحدة فى نطاق الجملة الواحدة .

***

انتقل إلى المجموعة (ج) ، وتأمل فى معنى الآية الأُولى (أَمِ اتَّخَذُوا من دونه أولياءَ فالله هو الوليُّ) تجد أنها تُنْكِرُ على المشركينَ اتخاذَ آلهةٍ غير الله ؛ لأن الإلهَ الحقَّ يجبُ أن يتميزَ بصفاتٍ تجعلُه أهلا للعبادة والطاعة ، وليس لآلهتهم شيءٌ من ذلك ؛ فإن أرادوا وَليًّا قادرًا على النُّصْرة وتدبيرِ الأمرِ فذلك هو اللهُ وحدَه .

فالمحذوفُ — على هذا — جملةٌ شرطية ، والتقديرُ (إن أرادُوا وليًّا بحقٍّ فالله هو الوليُّ) ، وقد جمَّلَ هذا الحذفُ لما فيه من توجيه الذهن إلى جواب الشَّرْط : (فاللهُ هو الوليُّ) ، وجاءَ هذا الجوابُ معرفَ الطرفين مع ضمير الفصل ؛ ليفيد قصر الولاية على الله وحده ، ونفيها عن كلٍّ ماسواه .

وفى الآية الثانية : (ولو ترى إذ وُقفوا على النار ... من المؤمنين) حَذفَ جوابُ (لو) وهو جملة ، والمعنى : ولو تراهم حينَ يُوقَفُون على النارِ ، ويدركُونَ شدة عذابها ، ويتمنَّوْنَ من هول مارأَوْا

أن لو عادُوا إلى الدُّنيا لتتاحَ لهم فرصةُ التصديق والإيمان ، لو تراهم على هذه الحال لرأيت أمراً هائلاً رهيبا .

والحذفُ هنا بليغُ الدلالة ؛ لأنه يتيحُ للذهن أن يذهبَ في تصوُّر هول الموقف كلَّ مذهَب ، وكأنه شيءٌ لا يُحدُّ ، ولا يحيط به الوصف .

وانتقلْ إلى الآية الثـالثة : « مما خطيئاتِهِم أُغرقُوا فأُدْخِلُوا ناراً .. أنصاراً) وتأمَّلْ فيهـا ، لقد عرضت موقفَ قومِ نوح ، وأنَّهم عَصَوْه ، وأعرَضُوا عن الحق ، واتبعوا رؤساءَهم المضلين ، الذين أغروْهم بإيذائه ، وصدُّوهم عن الاستماع إليه ، ولقد عاقبهم الله بسببِ هذه الخطايا الكثيرة التي اقترفُوها ، فأغرقَهم الطوفانُ ، ولم يُبْقِ منهم أحداً ، ولهم في الآخرة نارٌ حاميـةٌ يَصْلَوْنَ سعيرَها ، ولا يجدُونَ من ينصرُهم ، أو يغني عنهم من عذابِ الله شيئا .

وتستطيعُ أن تلحَظَ الحذفَ واضحًا بين (أُغرقُوا) و (أُدخلُوا ناراً) ، لأنَّ فيه انتقالا من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الإغراق بالطوفان إلى الإحراق في نارِ جهنم ، والمحذوفُ هنا جُمَلٌ متعددة ؛ فقد (هلكُوا ، وبُعثُوا يومَ القيامة ، وحُوسِـبوا على معاصـيهم فأُدْخلُوا نارا) .

وسرُّ جمالِ هذا الحذف أنه جمعَ بين الإغراق والإحراق ، وفاجأ بذكرِ عذابِ الدنيا مع عذابِ الآخرة ؛ حتى كأنهما مقترنان ، وفي ذلك إيقاظٌ للعقول ، وتخويفٌ من تلك النهاية الأليمـة ، وقد جاء

التعبيرُ بالفعلِ الماضي مع الفاءِ التي تفيدُ التعقيبَ في : « فأُدْخِلُوا نارًا » ، وهو يوحي باقترابِ العذابِ حتى كأنه واقعٌ فعلاً .

فإذا انتقلتَ إلى الآياتِ الأخيرة التي تدورُ حولَ قصةِ موسى — رأيتَ أنها تأتي بالأحداثِ البارزةِ ، وتدعُ الذهنَ يربطُ بينها بتفاصيلَ كثيرة ، معروفة من القصة .

انظر إلى قوله تعالى : « أن اقذفيه في التابوت ، فاقذفيه في اليَمِّ ، فلْيُلْقِهِ اليمُّ بالساحل » ، ثم انظر إلى قوله تعالى بعد ذلك : « وألقيتُ عليكَ محبةً مني ، ولِتُصْنَعَ على عيني » تجد أن المحذوفَ تفاصيلُ كثيرة ؛ فقد وضعتهُ أمه في التابوت ، وألقت التابوتَ في اليم ، ثم حَمَلَه التيارُ حتى وصلَ إلى قصر فرعون ، وهيأ الله له من يلتقطه وحاطه برعايته ، فبحثوا عن المراضع ، وأبى أن يَقبلَ على مرْضعةٍ منهن ، ثم كان أن تقدمت أخته تعرضُ عليهم أن تدلهم على من يكفله : « إذ تمشي أختك فتقولُ هل أدلكم على من يَكْفُلُه .. ولا تحزن » .

وهكذا ترى حذفا لكثيرٍ من التفاصيل ، وتركيزًا على النواحي البارزة ، التي توحي بقدرة الله ، وعظمته ، وتوجهُ الأنظارَ والقلوبَ إلى موطنِ العظة والاعتبار . وفي القصَصِ مجالٌ فسيحٌ لمثلِ هذا الحذف ، الذي يَسْهُلُ معه ربْطُ مواقفِ القصة بعضِها ببعض ، مع استثارة الذهن والخيالِ إلى تصورِ ما حُذِفَ من تفاصيل .

الخلاصة :

١ — الأصلُ في الكلام أن تُذْكَرَ أجزاؤه التي تؤدِّي معناه تامةً ، ودونَ حذف .

٢ — يأْتي الحذفُ لغَرَض بلاغي ، والمحذوفُ قد يكون :

— لفظةً من جملة .

— أو جملةً .

— أو جملاً وفقرات متعددة .

٣ — لايجمل الحذفُ ، ولايُعَدُّ بلاغيًا إلا إذا ساعدَ على الإيحاءِ بمعانٍ ومشاعرَ تزيدُ الكلامَ قوةً وتأْثيرا ، وأمْكن مع ذلك ربطُ الكلامِ بعضه ببعض ، دون أن يقطَعَ خيطُ الاتصالِ الفكرى فيه .

تمرينات

١ — قالَ تعالى :

« إنَّ بطشَ ربِّكَ لشديدٌ . إنه هو يُبْدِىءُ ويعيدُ . وهو الغفورُ الوَدُودُ . ذُو العرشِ المجيدُ . فعّالٌ لما يريد (١) » .

(ا) فيما تحته خط في الآيات حذفٌ . فما المحذوف ؟ .

(ب) ما أثرُ هذا الحذف من ناحيةِ المعنى ، ومن ناحيةِ الموسيقا ؟

---

(١) سورة البروج : الآيات (١٢ — ١٦)

٢ ــ وقال تعالى :

« كلاَّ إذا دُكَّت الأرض دكًّا دكًّا . وَجاء ربكَ والملكُ صفا صفا وجيء يَوْمَئِذٍ بجهنمَ يومئذ يتذكرُ الإنسانُ وَأنّى لَهُ الذِّكْرَى[1] » .

(ا) عيّن مواطنَ الحذف فى الآيات .

(ب) ماذا أفادَ هذا الحذف فى كلٍّ من هذه المواطن ؟ .

٣ ــ لعنترة :

نُبِّئْتُ عَمْراً غيرَ شاكرِ نعمتى والكفرُ مَخبَثةٌ لنفس المُنعمِ

ماذا فى البيت من حذف ؟ وما قيمته فى المعنى ؟ .

٤ ــ قال تعالى :

« وَسيقَ الذين اتقَوْا ربَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَراً حتى إذا جاءوها وَفُتِحَتْ أبْوَابُهَا ، وقال لهم خزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيكُمْ طِبْتُمْ فادْخُلُوهَا خَالِدِينَ[2] » .

(ا) حذف جوابُ (إذا) فى الآية . قدّرِ المحذوفَ فى ضوءِ ماتضمّنته الآية ، وبين الأثرَ البلاغيَّ له .

٥ ــ قال تعالى فى قصة نوح :

« وَاتْلُ عليهم نَبأَ نوحٍ إذ قالَ لقومه : يا قومِ إنْ كانَ كَبُرَ عليكم

(١) سورة الفجر الآيات (٢١ ــ ٢٣) .
(٢) سورة الزمر . الآية (٧٣) .

مَقَامِى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلتُ ، فأجمِعوا أمرَكم وشركاءكم ، ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمّةً ، ثم اقضُوا إلىَّ ولا تنظرُون . فإن توليتم فما سألتُكم من أجر إن أجرىَ إلا على الله ، وأُمِرْتُ أن أكونَ من المسلمينَ . فكذبُوه ، فنجّيناه ومن معهُ فى الفُلْك ، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذينَ كذّبُوا بآياتِنا ، فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المُنذَرين[1] » .

قال تعالى فى هذه القصة : « فكذبوه فنجيناه .. » وبَيْنَ التكذيب والنجاةِ أحداثٌ كثيرةٌ تعرفها من قصةِ نوح . قدِّر المحذوفَ ، واذكرِ الأثرَ البلاغىَّ لهذا الحذفِ .

(1) سورة يونس ، الآيات ٧١ — ٧٣ .

التوكيد

(أ)

لعتبةَ بن أبى سفيان ينصح مُعَلِّمَ أولاده :

« ليكن أولَ ما تبدأُ به من إصلاح بَنِىَّ إصلاحُ نفسك ؛ لأن أعْيُنَهُمْ معقودةٌ بعينكَ ، فالحسنُ عندَهم ما استَحْسَنْتَ ، والقبيحُ عندَهم ما استقبحت ، وعلِّمْهُم كتابَ الله ، ولا تُكْرِهْهُم عليه فيمَلّوه ، ولا تتْركهُم منه فيهجُروه ، ثم روِّهم من الشعر أعَفَّه . ومن الحديث أشرَفَه ، ولا تُخْرِجْهم من علمٍ إلى غيره حتى يُحْكِمُوه ، وكن لهم كالطبيب لا يعجَلُ بالدواء قبل معرفة الداءِ »

(ب)

قال تعالى فى قصة يوسف :

« إذ قالَ يوسفُ لأبيه يا أبت إنى رأيتُ أحدَ عشرَ كوكبا، والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لى ساجدِين (١) » .

وقال تعالى :

« قالوا يا أبانا مَالَكَ لا تأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا له لناصحُون . أرْسِله مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ ويلعبْ وَإنا له لحافظُون . قال إنى ليحزُنُنى أن تذهبُوا به ، وَأخافُ أن يأْكلَه الذئبُ وَأنتم عنه غافلُون . قالوا لَئن أَكَلَهُ الذئبُ وَنحنُ عصبةٌ إنا إذاً لخاسرون(٢) .

---

(١) سورة يوسف ٠ الآية (٤) ٠
(٢) سورة يوسف ٠ الآيات (١١ ــ ١٤) ٠

(ج)

لداودَ بنِ عليٍّ أحد مؤسسى الدولة العباسية عند قيامها :

« شكرا شكرا ، إننا والله ما خرجْنَا لنحفِرَ فيكم نهرًا ، ولا لنبْنِىَ فيكم قصرًا . الآن أخذَ القوسَ باريها (١) ، وعادت النبْلُ إلى النَّزَعَة (٢) ، ورَجَع الحقُّ إلى نصابه ، فى أهل بيت النبوةِ والرحمة .

والله لقد كنا نتوجَّعُ لكم ونحنُ فى فُرُشنا . أمِنَ الأسود والأحمر . لكم ذمةُ الله . لكم ذمةُ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم . لكم ذمة العباس . لاوربِّ هذه البَنِيَّة (٣) لانَهيجُ فيكم أحدا »

لميخائيل نعيمةَ (بتصرف) :

« لَعَمْرى إن حمايةَ السلامِ بالإعدادِ للحربِ لمنتهى الاستهانةِ بالعقل والمنطق ، وغايةُ الاستخفاف بالناس وآمالهم وأقداسهم . فمن ذا يصدِّقُ أن المِدْفعَ الذى ماوُجدَ إلا لتخريب السِّلْمِ يصلُح أن يكون حارسا للسلم ؟ ومن ذا يصدِّقُ أن السِّلمَ يقتات ويَحْيا بالقذائف الجَهنَّمِيَّة المكدَّسَة فى مستودَعَات الدول ؟ حقا . إن ذلك ليس بمستساغ . إنه لَمن العار على هذا الكائنِ

---

(١) القوس : آلة الرمى بالسهام ، و « أخذ القوس باريها » مثل يضرب فى اسناد الامر الى أهله .
(٢) النزعة : جمع نازع ، وهو الذى يرمى بالقوس .
(٣) البنية : الكعبة .

العجيب الذى لا حدود لمواهبه أن يستبدلَ بعقله وخياله وإرادته نابَ الأفعى ، وظفرَ البازى ، وغريزة الأخطبوط »

التوضيح

عُدْ إلى النماذج السابقة ، وقِف عندَ كلِّ نموذجٍ منها وقفةً متأنيةً متأملة .

فى النموذج الأول ترى عتبةَ بن أبى سفيانَ يُلقِى إلى معلم أولادِه ببعضِ النصائح ، التى يرى الاهتداءَ بها فى تعليمه لهم .

يوجهه إلى أن يكونَ قدوةً صالحة لهم ، وأن يأخذهم إلى حفظ القرآن الكريمِ وفهمه فى أناة واعية ، لايُكرِهَهم عليه فينفروا منه ، ولا يُطيلُ بعدهم عنه فيهجروه ، وأن يؤدِّبَهم بأعفِّ الشعر ، وأشرف الحديث ، على أن يدعَ لهم الفرصةَ لتثبيتِ مادرسُوا قبل أن ينتقلَ إلى غيره ، وعلى أن يكون كالطبيب لايعطِى المعرفةَ إلا عندَ الحاجةِ إليها ، وبقدر هذه الحاجة .

والموقف ، كما ترى ، موقفُ نصح ، والنصائحُ تلقى فيه إلى شخص ، يتقبّلُها فى غير تردُّد ولا إنكار لما يلقى إليه ؛ ولهذا جاءَ الكلام فى جملتِه خالياً من التوكيد .

***

وفى النموذج رقم (٢) ترى موقفين من قصة يُوسُفَ عليه السلام — فى الأول يحدِّثُ أباه برؤْيا غريبة رآها ؛ فقد رأى فى منامِه أن أحدَ عَشَرَ كوكباً مع الشمس والقمر تسجدُ له .

ولغرابة مارأى ، ولأن أباه قد يتردد في تقبله — بادر فألقى الخبر الى أبيه مؤكداً تأكيدا خفيفا بمؤكد واحد ، هو « إنَّ » فقال : إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر » .

ولعله لمح الدهشة في وجه أبيه ، فأعاد الخبر وكروه : « رأيتُهم لي ساجدين » ، ليقرره في نفسه .

وفي الموقف الثاني ترى حِواراً بين إخوة يوسفَ وأبيهم ؛ فهم يحاولون أن ينفردُوا بيوسف ، ليدبِّرُوا له مكيدةً تبعِد به عن أبيه الذي يؤْثره عليهم ، والأبِ متوجِّسٌ غاية التوجس منهم ، غيرُ مطمئنٍ لهم .

وفي هذا الحوارِ ينكرون منه أنه لا يأمَنُهم عليه ، ويؤكدون أنهم سيرعَوْنَه غاية الرعاية . يؤكدون ذلك بإنَّ واللام معا « إنا له لناصحون » . « إنا له لحافظون » ويجيب الأبُ محاولاً أن يصرفهم عما يُلِحُّون فيه ، فيقولُ مؤكدا قوله بإنَّ واللامِ أيضا : « إني ليحزُنُنِي أن تذهبوا به » ، وإذن لايرون سبيلاً إلا أن يزيدُوا من تأكيد الكلام ، فيسوقوا قولهم مؤكداً بالقسمِ ، وإنَّ واللام في صدر الخبر : « لئِنْ أكلَهُ الذئبُ ونحنُ عُصبةٌ إنَّا إذاً لخاسِرُون »

وهكذا ترى أن موقفَ المخاطب له أثرهُ في توكيد الكلام الذي يلقى إليه ، فإذا كان متردِّداً شاكاً أكّدَ له الكلام بمؤكّد واحد ، وإذا كان منكراً لما يسمعُ أكدَ له الكلامُ بمؤكدين أو أكثرَ حَسَبِ درجةِ إنكاره .

***

وفى النموذج رقم (٣) تقف أمام موقفٍ غير عادي : دولةٌ زالت ، ودولةٌ تقومُ وخلافةٌ تهاوَتْ ، وأُخرى تَقْبِضُ على زمَامِ الحكم ، والناسُ متطلِّعُون أن يعرفُوا سياسة الخلافة الجديدة ، وخُطَّتها فى معاملتِهم .

ومثل هذا الموقف الخطير يقتضى أن يلقى فيه الكلامُ قويا مؤكَّدا . انظر إلى داودَ بن على . إنه فى هذه الخطبةِ القصيرةِ يبدأ بالشكر لله ، ولمن عاونوا فى قيام الدولة ، ويطَمْئن الناس إلى أن الدولةَ الجديدة لم تَقُمْ لاستغلالِهم ، أو الإثراءِ على حسابهم ، وإنما قامت لنَقْلِ الحُكْمِ إلى أصحابه : إلى بيت النُّبُوَّة والرحمةِ ، ثم يَعدُهم أن الأمن سيُظلّهم تحت راية العهد الجديد .

وهو يلقى ذلك كلَّه مؤكَّدا . تأمل أساليبَ التوكيد فى الخطبة تجدْ أن منها :

التوكيد اللفظيّ : « شكرا شكرا » ، والتوكيدَ بأدواته المعروفَة ؛ ومنها هنا « إنّ . القسم . اللام . قد » ، وذلك فى قوله : « إننا والله ماخرجْنا لنَحفِر فيكم نهرا . والله لقد كنا نتوجع لكم ونحنُ فى فُرُشنا . ورب هذه البَنِيّةِ لانهيج فيكم أحدا » ، والتوكيدُ بالجمل المترَادفة المعنى « أخذ القوسَ باريها — عادت النَّبْلُ إلى النَّزَعةِ — رجع الحقُّ إلى نصابه » ، والتوكيد الذى يجمع بين التكرار اللفظيّ والمعنوى « لكم ذمة الله .. العباس » .

وللتوكيد جمالُه فى الخطبة ؛ لأنه يلائِم الموقف ، ويعبر عن

شدة انفعالِ الخطيب به ، ويحمل الكلامَ إلى السامعين قويًّا مقنعاً مؤثراً .

وفى النموذج رقم (٤) لميخائيل نعيمة ترى دفاعاً قويا عن السلام ، ورفضا قويا لفكرة : « أن الإعداد للحربِ حمايةٌ له » .

وفى هذا الدفاع المتحمسِ تطالعك أساليب التوكيد ، وهى تتدفقُ قويةً يحاول بها الكاتب أن تصلَ بالكلام إلى السامعين مقنعاً مؤثرا ..

ومن هذه الأساليب ماجاء بأدوات التوكيد : كالقسمِ وإنَّ واللام فى قوله : « لعمرى إن حماية السلام .. والمنطق » وماجاءَ بما وإلا فى قوله : « ماوُجِدَ إلا لتخريب السلم » ، والتوكيدُ فى هـذا التركيب واضح ؛ لما يدلُّ عليه من أن وجودَ المدفعِ مقصورٌ على التخريب لايجاوزه قطُّ إلى حماية السلام ، وماجاءَ بالباءِ الزائدة فى قوله : « إن ذلك ليس بمستساغ » .

ومنها ماجاءَ بالألفاظ التى تحمل معنى التوكيد مثل « حقا » ، أو الأساليب التى تحملُ هذا المعنى مثل : « من ذا يصدق .. حارسا للسلم ؟ » لأن المعنى أن الناس لايختلفون فى تكذيب هذه الدعوى ، ومنها ترادُف التراكيب التى تحملُ معنى واحدًا ، كما ترى ذلك واضحا فى القطعة .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

١ ـــ أن الكلام قد يأتى خالياً من التوكيد ، وقد يأتى مؤكدا .

٢ ــ يخلو الكلام من التوكيد إذا لم يكن هناك مايبرّره ، وذلك إذا كان المخاطب متقبّلاً له ، غيرَ متردد أو منكر ، أو كان مايلْقى إليه فى غنى عن أن يؤكّد له .

٣ ــ يؤكّدُ الكلامُ فى حالتين :

ــ حالة المخاطب إذا كان متردداً فيما يلقى إليه ، أو منكراً له ، ويؤكّدَ للمتردد بمؤكد واحد ،و للمنكر بمؤكدين أو أكثرَ حسبَ درجة إنكاره .

ــ إذا كان الموقفُ الذى يواجهه الأديب له خَطَرُه ، ولا يُغْنى فيه إلا الكلامُ المؤكدُ ، أو كانت الحقيقةُ التى يريدُ أن يَنْقُلَها إلى السامعين لها شأنُها ، ودفَعَهُ الاهتمامُ بها إلى توكيدها .

٤ ــ وسائل التوكيد فى اللغة العربية كثيرةٌ ، منها :
أدواتُ التوكيد ، مثل : « إنّ وأن ، والقسم ، ولام الابتداء ، ونونى التوكيد : الخفيفة والثقيلة ، وقد ، وأما الشرطية ، والأحرف الزائدة » .

ومنها التوكيد عن طريق التكرار اللفظىّ ، ويكونُ بتكرار اللفظِ أو الجملة ، والتوكيد عن طريق ترادف الجمل المشتركة فى معنىً واحد .

ومنها الألفاظُ التى تحملُ معنىَ التوكيد ، مثل : حقاً . لا ريب . لا شكّ . لا جدال .. »

٥ ــ يجملُ التوكيدُ ، ويحقق غرضَه البلاغىّ إذا كان صادراً

عن شعورِ الأديب ، وجاءَ بقدرِ الحاجة إليه ، وإذ ذاك يعطى الكلامَ قوةً ، ويزيد من قدرته على الإقناع والتأثير .

تمرينات

(١)

قال تعالى على لسان شُعَيْبٍ لقومه :

« وَيا قَومِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ⁽¹⁾ شِقَاقِى أن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أصَابَ قَوْمَ نوحٍ أو قَوْمَ هُودٍ أو قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لوطٍ مِّنكُم ببَعِيد . وَاستَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إليه إنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ . قَالوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ، وَإنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ⁽²⁾ » .

(ا) فى الآيات حوارٌ بين شعيبٍ وقومِه . وضحه .
(ب) عين كلَّ أسلوبٍ للتوكيد ، وبين سببه فى الآيات .
(ج) ماسرُّ الجمالِ فى هذا التوكيد ؟

(٢)

قال ابن المقفع يصفُ صاحبا له :

« إنى مخبرُكَ عن صاحبٍ لى كان أعظمَ الناسِ فى عينى ،

---

(١) لا يجرمنكم : لايحملنكم .
(٢) سورة هود . الآيات (٨٩ — ٩١) .

وكان رأسُ ماعظَّمَه في عيني صِغَرُ الدنيا في عينيه . كان خارجاً من سلطانِ بطنه ، فلا يتشهَّى مالايجِدُ ، ولا يكثِرُ إذا وجد ... وكان خارجاً من سلطانِ لسانِه ؛ فلا يتكلم بما لايعلم ، ولايُمَارى(١) فيما علم ، وكان خارجاً من سلطانِ الجهالة ؛ فلا يتقدَّمُ إلا على ثقة بمنفعة » .

(ا) بماذا وصف ابنُ المُقَفَّع صاحبَه فيما تقدم ؟
(ب) جاءَ هذا الكلامُ خاليا من أساليب التوكيد . لماذا ؟

(٣)

للشاعر عبد الرحمنِ الكيَّالى :

أنا يا أخى العربىَّ سهـ ـرانٌ وتحت يدى سلاحى
أنا يا أخى العربىُّ قد أعددتُ نفسِى للكفاحِ
لابُدَّ من سحقِ الغزا ةِ إذا هُم نزلوا بساحى

(ا) عبر بأسلوبِكَ عن فكرة الأبيات .
(ب) بين أساليبَ التوكيدِ فيها ، مع توضيح الدافع إليه .
(ج) ماسرُّ جمالِ التوكيدِ فى الأبيات ؟

(٤)

قال النابغةُ فى الاعتذارِ للنُّعمَانِ بنِ المنذر :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ ريبةً
وليس وراءَ الله للمـرءِ مذهبُ

(١) يمارى : يجادل .

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنيَ وِشَايةً
لَمُبْلِغُكَ الواشيأغشُّ وأكذَبُ

(ا) بماذا يعتذِرُ النابغةُ فى البيتين ؟

(ب) ماقيمةُ قوله فى البيت الأول : (وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ) ؟

(ج) عين أساليبَ التوكيد فى البيتين .

(د) بين الغرضَ البلاغيَّ من التوكيد ، ومافيه من جمال .

(٥)

قال عليه السلامُ فى أول خطبةٍ بمكةَ حين دعا قومَه إلى الإسلام :

« إن الرائدَ (١) لا يكذبُ أهلَه . والله لو كذبتُ الناسَ ماكذبتكُم ، ولو غرَرْتُ (٢) الناسَ ماغرَرْتُكم . والله الذى لا إله إلا هو : إنى رسولُ الله إليكم حقا ، والى الناس كافةً ، والله لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون ، ولتحاسَبُنَّ بما تعملون ، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءًا ، وإنها للجَنَّةَ أبدا أو النارُ أبدا .. » .

(ا) ماذا تضمنت هذه الخطبة من مبادىء الدعوة ؟

(ب) ما الدافعُ إلى التوكيد فيها ؟

(ج) وضح أساليب التوكيد بها ، وبين قيمتَه البلاغية .

---

(١) الرائد : الذى يبحث لقومه عن مكان صالح ينزلون فيه .
(٢) غررت : خدعت .

القصر

(أ)

١ ـ قال أبو تمام :

بصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترَها
تُنَالُ إلا على جسرٍ من التعبِ

٢ ـ ولشوقى :

وإنما الأُمم الأخلاق ما بَقيَتْ
فإن هُمُ ذَهَبَتْ أخلاقُهُمْ ذهبوا

٣ ـ وقال الشاعر :

وما ارتحالك فى كسب الغنى سفراً
لكن مُقَامُك فى ضُرٍّ هو السَّفرُ

٤ ـ وقال ابنُ الرومى :

يهتزُّ عطفاه عند الحمد يَسْمَعُهُ
من هزَّة المجد لا من هزة الطربِ

٥ ـ وقال شوقى فى همزيته النبوية :

ماجئتُ بابَكَ مادحاً بل داعياً ومن المديحِ تضرعٌ ودعاءُ

٦ ـ وقال الله تعالى :

« قُل لَّن يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ(١) » .

---

(١) سورة التوبة . (الآية ٥١) .

(ب)

ماشوقى إلا شاعر .

ماشاعر إلا شوقى .

التوضيح

(ا)

إذا استعرضتَ الأمثلةَ السابقة ، وتأملتَ دلالتَها وجدتَ أنها تَشْتَرِكُ في أداءِ المعانى التى تَحملُها أداءً مؤكّدًا . فمن أين اكتسبت ذلك ؟ .

ـ انظر إلى المثالِ الأول تجدْ أن أبا تمامٍ يخاطبُ الخليفةَ العباسىَّ المعتصمَ بالله ويمدحُه ببعد النظر ، والجدِّ فى الأمر ؛ فقد أدرك ببصيرته النافذة أن النصرَ طريقُه الجَهْدُ والمشقة ، وأن الراحةَ الكبرى طريقُها التعبُ والكد .

وقد أدّى الشاعرُ هذا المعنى فى قوةٍ وتأكيد بقوله : (فلم تَرَهَا تنالُ إلا على جسرٍ من التعب) فقد جعلَ نَيْلَ الراحة الكبرى مقصورًا على طريقٍ واحد لايتعداه هو طريقُ التعب ، والذى أفادَ هذا القصرَ هو استخدامُ أداة النفى (لم) مع أداة الاستثناء (إلا) .

ـ وفى المثالِ الثانى جعل شوقى الأخلاق أساس بقاء الأمم ، وسرَّ تقدمها ، وجعل ذَهَابَ الأخلاقِ أى فسادَها وانحلالَها إيذانا بتأخر الأمم وفنائها ، وقد آثرَ طريقَ القصر فى التعبيرِ عن هذا المعنى ، فقال : (وإنما الأمم الأخلاق) ، وبذلك أدّاه أداءً قويا مؤكّدًا ؛ لأنه قصر الأمم وبقاءَها على الأخلاق واستقامتها ، ومن اليسير أن

تدركُ أن الذى أفاد هذا القصرَ هو لفظةُ (إنما) .

ــ وتأمل البيتَ الثالثَ تجد أن الشاعر أرادَ أن يبين أن السفرَ ليس فى الانتقالِ والارتحالِ من بلد إلى بلد طلباً للمال وسعياً وراءَ الغنى ، ولكن السفرَ الحقيقىَّ المنطوىَ على العناءِ والمشقة هو الإقامةُ على ذلٍ وحرمان . ولعلك تلحظُ أن التعبيرَ قوىُّ الدلالة على المعنى ؛ لما فيه من قصر السفر على المُقامِ فى ضُرٍّ ، والذى أفادَ هذا القصرَ هو العطفُ بالحرف (لكن) .

ــ وابن الرومىِّ فى البيت الرابعِ جعلَ الممدوحَ يرتاح لسَماع الثناءِ عليه إذا كان متصلا بالمجد لا متصلا باللهو والطرب ، وأكدَ هذا المعنى بأسلوب القصر : « من هِزَّة المجد لا من هِزَّة الطرب » ، والذى أفاد القصر هنا العطف بلا .

ــ وشوقى فى البيت الخامس جَعلَ مدحَه للرسول عليه الصلاةُ والسلامُ دعاء وتضرعا ، واستخدمَ أسلوبَ القصر فى التعبيرِ عن المعنى ، فزادَه قوة وتأكيدا ، والذى أفاد هذا القصر هو العطفُ بالحرف (بلْ) .

ــ وفى الآية الأخيرة ترى قصرا فى : « وعَلَى اللهِ فلْيَتَوكّلِ المؤمنون » وهو يفيدُ أن التوكلَ الحق من المؤمنين الصادقين مقصور على الله وحده دون سواه . والذى أفاد هذا القصرَ هنا هو تقديم الجار والمجرور على الفعلِ أى تقديمُ ماحقه التأخير .

(ب)

وانظرْ إلى المثالين الأخيرين تجد أن كلا منهما أسلوبُ قصـر

طريقه النفى والاستثناء ، ولكنَّ بينهما فرقا دقيقا فى المعنى ، ينبغى أن تتنبه له ، فالمثال الأول يفيدُ أن شوقى شاعر وليس كاتبا أو قصاصا مثلا ، أما المثال الثانى فيفيدُ المبالغةَ فى مدح شوقى ، وأنه هو الشاعرُ الحقيقى ، وليسَ هناك شاعر غيرُه يبلغُ منزلتَه .

الخلاصة :

١ — القصرُ من أساليب التوكيد ، والتوكيدُ فيه ناشىء من قصر شىءٍ على شىءٍ آخر

٢ — من أشهر طرُق القصر : النفىُ والاستثناء ، وإنما ، والعطفُ بلا ، أو بل ، أو لكن ، وتقديمُ ماحقه التأخير .

٣ — من هذا القصر — كما ترى — ماهو حقيقى ، يختصُّ فيه المقصورُ بالمقصور عليه ، بحيث لا يتجاوزُه إلى غيره ، ومنه مايدلُّ على تخصيص المقصور بالمقصور عليه تخصيصا قويا مؤكداً .

٤ — سرُّ الجمال فى القصر ماينطوى عليه من دلالة تزيدُ الكلام قوةً وتأكيدا ، مع خلوه من المؤكدات المألوفة .

تمرينات

١ — قال الله تعالى :

« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » .

(ا) عين مافى الآية من أساليب القصر ، ووضح دلالة كلٍّ منها .
(ب) بين مافيها من جمالٍ بلاغى .

٢ ـ لنذير الحسامى :

أنا للكوخِ وللسرداب لا للقصر فَنّى
ولأنّاتِ الحَزانى أهدِمُ الدنيا وأَبنى
أنا للبؤسِ وفى البؤس أعاصيرى ومُزْنى
وعلى الغبنِ وفى الغبنِ نضالى ومِجَنّى
قلَمِى منى ولن يَشْتَقَّ إلا البأسُ منى
قاتلٌ فى الحقِّ يمشى لم أخنْهُ أو يَخُنّى

(ا) بم يفتخرُ الشاعر ؟ وعلى أى ملامحِ شخصيتِه يدل ذلك ؟
(ب) عين أساليبَ القصر فى الأبيات .
(ج) بين دلالة كلٍّ أسلوب منها .
(د) تحيط بأساليبِ القصر فى الأبيات قرائن تزيده جمالا . وضح ذلك .

٣ ــ لأبى تمام :

السيفُ أصدق أنباءً من الكتب
في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيضُ الصفائح لاسودُ الصحائفِ فى
مُتُونهنّ جَلاءُ الشك والرِّيَبِ
والعلم فى شُهُب الأرماحِ لامعةً
بين الخميسين لافى السبعةِ الشُّهُب

(ا) فى الأبيات إشادةٌ بالقوة ، وسخرية بالمُنَجِّمين . وضح ذلك .

(ب) وضح أنتصر فيها ، وأثره الجمالىَّ فى الكلام .

٤ — ما صديقٌ لى إلا علىّ .

ما علىٌّ إلا صديق لى .

(ا) وضح المعنى فى كلٍّ من التعبيرين .

(ب) أيهما أَقوى فى الدلالة على المعنى ؟

٥ — للمتنبى يخاطبُ سيفَ الدولة :

أجِزْنِى إذا أُنشِدتَ شعرا فإنما
أنا الطائر المحكىُّ والآخرُ الصدَى

وما الدهر إلا من رُوَاةِ قصائِدِى
إذا قلت شعرا أصبحَ الدهر مُنْشِدا

(ا) ماذا يطلبُ المتنبى من سيفِ الدولة ؟

(ب) وبماذا يفتخرُ فى البيت الثانى ؟

(ج) ولماذا آثرَ أُسلوب القصر فى البيتين ؟

(د) فى البيت الثانى مبالغة . وضحها ، وبين رأيك فيها .

السجع

١ ــ قال عليه السلام :

« رحِم اللهُ عبداً قال خيراً فَغَنِم أو سَكَتَ فَسَلِم » .

٢ ــ وقال :

آيةُ(١) المنافِق ثلاثٌ : « إذا حدَّثَ كَذَبَ ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإذا خاصم فَجَرَ(٢) » .

٣ ــ لابن العميد في التهديدِ واللوم :

« كتابي إليك وأنا مترجِّح بين طَمَعٍ فيك ، ويأس منك ، وإقبالٍ عليك ، وإعراض عنك ، فانك تُدِل (٣) بسابقِ حُرْمة ، وتَمُتُّ بسالِف خدمة ، أيسرُهما يوجبُ رعاية ، ويقتَضي محافظة وعناية ، ثم تشفَعُهُما (٤) بحادث غلول (٥) وخيانة ، وتتْبِعُهُما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبِطُ (٦) أعمالك ، ويسحق كلَّ ما يَرعى لك » .

---

(١) آية : علامة .
(٢) فجر : أسرف في الخصومة .
(٣) تدل : الادلال فرط الثقة الذي يدفع الى الاثقال .
(٤) تشفعهما : تجمع اليهما .
(٥) غلول : خيانة .
(٦) يحبط : يبطل .

٤ ــ لابن حبيب الحلبيّ فى وصفِ سفينة :

« يالها سفينةً ! على الأمواج أمينة ، ذات دُسُرٍ (١) وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطيرُ بغيرْ جناح ، وتَعتاض عن الحادى بالملاح تخوض (٢)وتلعب ، وتردُ ولا تشرب . لها قِلاَع كالقلاع ، وشِراع يحجُبُ الشّعاع » .

٥ ــ لطه حسين يصوّرُ رحلة أمّ أيمن حاضنةِ رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم من مكة إلى المدينةِ لتلحق به :

« إنها لتَسعَى ما وسِعها السّعْى ، ولكن الأمد بعيد ، والجَهْد شديد ، والماءَ منقطع ، والظمأَ مُحرق ، وجسمَها ضعيف لا يثبُت لهذه العادياتِ التى لا تثبُتُ لها أجسامُ الناس ، ولكنها تسعَى لا يائسةً ولا مُستسلِمةً » .

التوضيح

تأمل النماذجَ السابقة تَجدْ أن الأول لرسول الله صلى اللهُ عليه وسلم وفيه دعاءُ بالرحمةِ لمن يتحدث بالخير فيغنَمُ ، أو يَسكتْ فَيسلَم .

وقد سيق الحديثُ فى جملتين مُركّزَتين ، عرضت كلٌ منهما ناحيةً من الفكرة ، يقفُ عندها السامعُ والقارىءُ ، مطمئنا إلى

---

(١) دسر : الدسر : خيوط من ليف تشد بها السفينة .
(٢) تخوض : تنزل الماء وتمشى فيه .

الوقوفِ عليها لاكتمالِ المعنى الجزئىّ فيها . . وقد زادَ من جمال هذه الوقفة الفكرية أن الحرفَ الأخير متّحد فى الجملتين ، وبذلك ساعد الإيقاعُ الموسيقى على استقرار هذه الفكرة فى النفس ، وارتياحِها إليها .

ومثل هذا تجدُه فى الحديثِ الثانى له عليه السلام ، وهو مكوّنٌ من جُمَلٍ ثلاث تعرض علاماتِ المنافق ، وتتلخّصُ ذلك فى أنه يكذب إذا ما تَحَدَّث ، ويخونُ العهد إذا عاهد ، ويغالى ويسرف فى الخصومة إذا خاصم .

وفى الجملتين الأخيرتينِ من الحديث تَلْحظ أن كلمةَ « غدر » أقوى فى الدلالة على المعنى من كلمةِ (خان) ، وأن كلمة (فجر) أقوى فى مَوْضعها من كلمة (أسرفَ) أو (غالى) ، ومع هذه القوةِ ترى اتحادا فى الحرف الأخير من هاتين الجملتين ، وبذلك زاد الإيقاعُ الموسيقى لهما من قوةِ وقعِ المعنى فى النفس .

***

واتحاد الجملتين أو الجمل المتواليةِ فى الحرفِ الأخير هو الذى يسمى السجع ، والسجعُ الفنّى الجميل هو الذى يتطلبُه المعنى ، وهو الذى يزيدُ الفكرةَ قوةً بإيقاعه الموسيقىّ .

***

انظر إلى النموذجِ الثالث ، وهو لابن العميدِ تجدْ أن الكاتب حرصَ على أن يسوق المعنى الواحدَ فى جملتين مسجوعتين : « وانا مترجح بين طمعٍ فيك ويأس منك ـ وإقبالٍ عليك وإدبار عنك ؟

« تذلّ بسابقِ حرمة . تمّت بسالفِ خدمة » . ولم يكد يخرج على هذا المنهج .

وليس من شك أنه وقف طويلا ، يتأتّى ويتأنق ، لكى يستقيم له أسلوبُه الذى التزم فيه ، أو كادَ يلتزمُ فيه السجع ، وقد ساعدته عليه أُذنه الموسيقية ، ومعانيه المواتية له ، وإن لم يسلم من التكلف ، كما ترى ذلك واضحا فى قوله :

« وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويسحقُ كل مايُرعى لك » .

***

انتقل إلى النموذجِ الرابعِ تجد وصفا للسفينة ، لابن حبيب الحلبى ، الذى ظهر فى عصر العثمانيين ، أضعف عصور الأدب العربىّ ، وتجد أن الكاتب التزم فى وصفه السجع التزاما ، حتى ليخيل إليك أن وظيفة السجع قد انعكست انعكاسا ، فبدلا من أن يكون تابعا للفكرة أصبحت الفكرةُ تابعةً له . تأمل قوله : (ذات دُسُرٍ وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطيرُ بغير جناح) يتضحُ لك أن الحرص على أن تنتهى الكلمة الأخيرة فى هذه التراكيب الثلاثة بالحاءِ بعد الألف ، ساقه إلى هذه المعانى السطحيةِ التافهةِ التى لا غناءَ لها ، وتستطيعُ أن تلمح ذلك فى سائرِ وصفه .

فإذا انتقلتَ إلى النموذج الأخير ، وهو لطه حسين فى وصف الحاضنةِ ــ وجدتَ أسلوبا تطّردُ فيه المعانى ، وينسابُ فى ترسلٍ جميل ، له وقعهُ الموسيقى العذبُ ، ولكن الموسيقا فيه تعتمدُ على تأليف الكلمات ، أو بناء الجمل المتوازنةِ أو المتقاربة الإيقاع ، ولا تعتمدُ على السجعِ إلا نادرا ، وحيثُ يمليه المعنى ، كما فى قوله :

« الأمد بعيد ، والجهد شديد » ؛ بما تعطى الكلمتان الأخيرتان من امتدادِ النفس الذى يناسبُ الشدّةَ والجهد ، وبما لاتحاد الحرفِ الأخيرِ فيهما من جَرس يزيد من المعنى ، ومن قوةٍ وقعه فى النفس .

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لكَ :

١ ــ أن السجعَ نوعٌ من الجرس الصوتى ، يظهرُ فى تماثلِ الحرفِ الأخير من الفواصل ، وهى الكلمات الأخيرة من الجملِ والتراكيبِ المتوالية .

٢ ــ وسر الجمال فى السجع الفنّى ماله من جَرْسٍ موسيقىٍّ مؤثر ، فوق أنه يزيدُ من قوة أداءِ الفكرة ، مادامَ مرتبطا بها ، وغيرَ مجتلَبٍ على الكلام .

فإذا أدّى التزامُهُ إلى اجتلاب كلمات لا يقتضيها المعنى كان ضربا من الصنعةِ المُفسِدة .

٣ ــ ظاهرة السجعِ الملتزَمِ اقترنت فى الأدب العربىِّ بعصور الضَّعف التى أجدَبت فيها العقول ، واتسَم النتاج الأدَبى فيها بضحالة الفكرة وبالصنعة اللفظيةِ المُتكلفة .

تدريبات

١ ــ قال عليه السلام :

« اللهمّ أعطِ مُنْفقا خَلَفًا ، وأعطِ مُمسِكا تلفا »

(١) بين السجعَ فى الحديث .

(ب) مامدى ارتباطِ هذا السجعِ بالمعنى ؟ وما أثرهُ فيه ؟

٢ — من وصيةِ أبي بكر رضِيَ الله عنه لقائدِ جُنْدِه يزيدَ بنِ أبي سُفْيان :

« . . واسمُرْ بالليل في أصحابِك تأتِك الأخبار ، وتنكشفْ عندك الأستار ، وأكثِر حرَسَك ، وبدِّدْهم (١) في عسكرك ، وأكثِر مفاجأتهم في محارسِهم بغيرِ علمٍ منهم بك ، فمن وجدته غفل عن مَحْرَسه فأحسنْ أدبه ، وعاقبْه في غيرِ إفراط » .

(ا) يجمع الأسلوبُ في الفقرةِ السابقة بين السجعِ والترسل . وضح ذلك .

(ب) بين قيمةَ السجعِ فيه من الناحية الفنية .

٣ — من رسالة ليحيى البَرْمَكِيِّ وهو بالسِّجنِ إلى هارون الرشيد :

« من عبد أسلمتْه ذنوبُه ، وأوبقته (٢) عيوبُه ، وخذله شقيقُه ، ورفضه صديقُه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان (٣) ، فحلَّ في الضيقِ بعد السعة ، وعالج البؤْس بعد الدعَة .. »

تذكر يا أمير المؤمنين كِبرَ سني ، وضعفَ قوتي ، وارحم شيبي ، وهب لي رضاك .. »

---

(١) بددهم : فرقهم .
(٢) أوبقته : أهلكته .
(٣) الحدثان : الأحداث .

(ا) يستعطفُ يحيى البرمكىُّ الرشيد . بم يستعطفه ؟

(ب) وضح السجع فى هذه الرسالة .

(ج) ما رأيك فيه من الناحيةِ الفنية ؟ اذكر السبب .

٤ — لأبى تمامٍ من قصيدتهِ فى مدحِ المعتصمِ بعد انتصارهِ فى عمّورية :

تدبيرُ مُعتَصِـــمٍ بالله مُنْتقم ... لله مرتَغِب فى الله مرتقب
لم يغزُ قوما ولم ينهد(١) إلى بلد ... إلا تقدمَه جيشٌ من الرعب

(ا) اشرح البيتين بعبارتك .

(ب) تحدثْ عما فيهما من انتفاع بظاهرة السجع .

(ج) ما أثرُ هذا السجع فى موسيقا البيتين ؟ وضح ما تقول .

٥ — للقاضى الفاضل فى التهنئةِ بفتح بيتِ المقدس :

« فتح شرف الله به هذه الأمة ، وجلاَ به الغمة ، وكشف المُلمَّة ، بل شرفنا بفخْرِه ، وأعَدَّنا لِذُخرِه ، وخصَّنا بفضيلته فى عصره ، وأجرى منا ماكان قد أبطأ من عادةِ نصره » .

(ا) وضح الفكرةَ فى الفقرةِ السابقة .

(ب) التزم الكاتبُ فيها السجع . فهل يعجبُك ذلك ؟ بين سبب ما تقول .

---

(١) ينهد : ينهض .

الجناس

١ ــ قال تعالى :

« ويومَ تقومُ الساعةُ يقسِم المجرمون ما لبثوا غير ساعة (١) » .

٢ ــ وقال :

(فأما اليتيمَ فلا تقهر . وأما السائل فلا تنْهَرْ (٢)) .

٣ ــ وقال أبو تمام :

السيفُ أصدَقُ أنباء من الكُتُبِ
في حَدِّه الحد (٣) بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائفِ في
متونِهن جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ

٤ ــ وقال حسانُ بن ثابت :

وكنا متى يغزِ النبيُّ قبيلةً ... نصلْ جانبيه بالقنا والقنابلِ (٤)

التوضيح

ــ انظر إلى الأمثلةِ السابقة تجدْ في كلٍّ منها كلمتين تماثِلُ إحداهما الأخرى ، أو تقاربها في اللفظ ، وتخالفها في المعنى .

---

(١) سورة الروم . من الآية (٥٥) .
(٢) سورة الضحى . (الآيتان ٩ ، ١٠) .
(٣) الحد : الفصل .
(٤) القنا : الرماح ، والقنابل : جماعات الناس والخيل .

ففى المثالِ الأول تجدُ كلمتى (الساعة ، ساعة)

وفى المثال الثانى تجد كلمتى : (تقهر ، تنهر)

وفى المثال الثالث ترى كلمتى : « حد » و « الحد » وكلمتى : (الصفائح والصحائف) .

وفى المثال الرابع : « القنا والقنابل » .

وإيراد الكلامِ على هذا الوجهِ يسمى جناسا .

ــ لاحظ أن الكلمتين فى المثالِ الأول متفقتان فى كلِّ شىء : فى عددِ الحروف ، ونوعِها ، وترتيبها ، وهيئتِها ؛ ولذلك يسمى الجناسُ فى هذه الحالةِ تامًّا ، فاذا تغايرتِ الكلمتان المتجانستان فى نوعِ الحروف كما فى المثالِ الثانى ، أو فى ترتيبها كما فى البيت الثانى لأبى تمام ، أو فى عددِها كما فى المثال الرابع كان الجناسُ ناقصا .

أعد النظر فى الأمثلةِ لتتبين سرَّ الجمال فى الجناس ، وقِفْ عند الآية الأولى تجد أن كلمة (الساعة) فيها بمعنى القيامة ، وكلمة (ساعة) بمعنى الزمن المعروف ، وذلك أن الكفار فى الآخرةِ يشتدُّ ذعرُهم من هَوْل القيامة ، فتصغُر فى عيونِهم الدنيا ، ويقل شأنها، حتى يتقسموا أنهم مالَبِثُوا فيها غيرَ ساعة .

وهكذا ترى أن هذا الجناس ساعد على تهوينِ شأنِ الدنيا بجانبِ الآخرة ، وأن استعمال لفظة واحدةٍ فى هذين المعنيين المختلفين فيه مفاجأةٌ تثيرُ الذهن وتنبهه ، فيزدادُ وضوح إدراكه للمعنى ، كما أن

فيه توافقا صوتيًا بين الكلمتين يكسب الكلام جرسًا موسيقيا له وقعه في النفس .

***

وتستطيع أن تلحظ أن النهي في : (لا تقهر) ملائم تمام الملاءمة لضعف اليتيم وانكساره ، كما أن النهي في : (لا تنهر) ملائم تمام الملاءمة لحالة السائل ، ومن ثمّ جاء الجناس في الآية نابعاً من طبيعة المعنى ، مسايراً للدلالات التي تحف بالسياق ، وهذا يزيد الجناس جمالا .

***

وفي بيتي أبي تمام ترى أن الجناس الأول : « في حدّه الحدّ » جناس تام ، وله جماله وجرسه ، على حين ترى أن الصنعة بادية في الجناس الثاني « الصفائح الصحائف » ، وإن لم يُخِلّ بالمعنى .

وفي بيت حسان ترى أن الجناس « القنا . القنابل » جناس ناقص ، وأنه يلتقي مع المعنى ؛ لأن القنا والقنابل من عُدّة الحرب التي وجدها النبيّ صلى الله عليه وسلم من الأنصار .

***

الخلاصة :

١ — الجناس هو تماثل الكلمتين أو تقاربهما في اللفظ ، واختلافهما في المعنى .

٢ — يكون الجناس تاما إذا اتفق اللفظان في نوع الحروف ، وهيئتها ، وترتيبها ، وعددها ، ويكون غير تام إذا اختلف اللفظان في شيء من هذه النواحي الأربع .

٣ — من أسرارِ الجمالِ فى الجناسِ أنه يزيدُ أداءَ المعـانى حسنا ؛ بما ينطوى عليه من مفاجأة تثير الذهنَ ، وتقوى إدراكه للمعنى المقصود .

وفيه كذلك جَرْسٌ صوتىٌّ يُكسب الكلام لوْناً من الموسيقا المؤثِّرة ، ويزدادُ الجناسُ جمالاً إذا كان نابعاً من طبيعةِ المعانى التى يعبِّرُ عنها الأديب ، ولم يكن مطلبـاً مقصوداً يوجِّهُ هـذه المعانى ، أو متكلَّفاً مجلوباً ، جرياً وراءَ الصنعةِ الشكلية ، ومجردِ الجرس الموسيقى .

***

تمرينـات

١ — قالَ صلَّى الله عليه وسلم : « الخيلُ معقود فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة » .

(أ) عينِ الجناسَ فى الحديثِ السابق ، وبيِّنْ نوعه .

(ب) ماسرُّ الجمالِ فيه ؟ .

٢ — وقالَ أبو تمام :

ولم أرَ كالمعروف تدعى حقوقُهُ مغارمَ فى الأقوامِ وهى مغانِمُ

(أ) اشرح البيتَ بأسلوبك .

(ب) عين مافيه من جناس ، وبين رأيَك فيه من الناحيةِ الجمالية .

٣ ـ وقال النابغةُ في الرثاءِ :

فيالك من حَزْمٍ وعزْمٍ طواهُمــــا
جديدُ الرَّدَى بين الصَّفَا والصفائحِ (١)

(أ) اشرح البيتَ السابق بأسلوبٍ أدبي .

(ب) وضح مافيه من جناسٍ ، وبين قيمتَه الجمالية .

٤ ـ لأبي العلاءِ المعرى :

لم نلق غيرَكَ إنسانا يلاذُ بهِ   فلا برحتَ لعينِ الدهرِ إنسانا

(أ) بماذا يصفُ الشاعر الممدوح ؟

(ب) عين موطنَ الجناسِ في البيت ، وبين سر جماله .

٥ ـ من قصيدةٍ للخنساءِ في رثاء أخيها صخر :

إن البكاءَ هو الشفا   ءُ من الجوى بين الجوانح

(أ) اشرح البيتَ بعبارتك .

(ب) من أين اكتسبت عبارةُ البيت مافيها من موسيقا ؟

(ج) أترى للجناسِ في هذا البيتِ أثراً في المعنى ؟ وضح ماتقول مبينا السبب .

٦ ـ للبحتريِّ في وصف معركة أنطاكية :

وعِـــراكُ الرجـــال بين يديه
في خُفُوت منهم وإغمــاض جَرْسٍ

---

(١) الصفا : الحجارة ، المفرد صفاة ، والصـــفائح : حجارة رقاق تسقف بها القبور أو تبلط بها .

من مشيح (١) يهوى بعـــامل رُمحِهِ
ومليحٍ (٢) من السـنانِ بِترْسِ

(أ) اشرح البيتين فى أسلوبٍ أدبى .

(ب) الجناسُ فى البيت الثـانى مرتبطٌ بالمعنى أقوى ارتباط . وضح ذلك ، وبين مافيه من جمال .

(ج) كان الجناسُ يُعَدُّ فى نظرِ القدماءِ من المحسناتِ اللفظية . ما رأيك فى ذلك ؟ اذكر سببَ ما تقـولُ فى ضـوءِ الجنـاس فى البيتين .

---

(١) مشيح : المشيح الفارس يقبل وقد احتاط لما وراء ظهره .
(٢) مليح : الفارس البارع الحريص فى تلقى الضربات .

المطابقة

١ ــ قال تعالى :

« تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ(١) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ » .

سورة الملك : الآيتان (١ ، ٢)

٢ ــ وقال :

« يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا » .

سورة النساء : الآية (١٠٨)

٣ ــ وقال :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٢) . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » .

سورة الليل : الآيات (٥ ــ ١٠)

---

(١) ليبلوكم : الابتلاء : الاختبار .
(٢) الحسنى : أى الملة الحسنى : أى الدين الاسلامى .

٤ ـ ولابن الرومى فى رثاء ولده :

طواه الردى عنى ، فأضحى مَزارُهُ
بعيداً على قربٍ قريباً على بُعدِ

لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدَها
وأخْلَفَتِ الآمال ماكان من وعْد

٥ ـ لحافظ إبراهيم فى قصر إسماعيل الذى تحول حديقةً للحيوان بالجزيرة :

فيه للنحسِ كوكبٌ مُسرعُ السيـ
ـرِ وللسعدِ كوكبٌ مُتوانى (١)

خَطَرَ (٢) الليثُ فى فنَائِك يا قصـ
ـرُ ، وقد كنتَ مسرحاً للحسَانِ

وحبـاكَ الزوَّارُ بالمال يا قصـ
ـرُ وقد كنت مصدر الإحسانِ

٦ ـ للصاحب بن عباد فى رثاء كثير بن أحمد :

يقولون : قد أودى (٣) كثيرُ بنُ أحمد
وذلك رُزْءٌ (٤) فى الأنام جليـلُ

فقلت دعونى والعلا نبكِه معـاً
فمثلُ كثـيرٍ فى الأنام قليلُ

---

(١) متوان : متباطىء .
(٢) خطر : مشى مختالا فى مشيته .
(٣) أودى : هلك .
(٤) رزء : مصيبة .

التوضيح

ارجع إلى النماذجِ المتقدمة ، وتأمل النصَّ القرآنى الأول فيها تجدْ نفسَك أمام آيتين تَعرضان شيئاً من مظاهر عظمته ـ تعالى ـ وحكمته ؛ ومن ذلك أنه مالك الملك ، وأنه قديرٌ على كل شيءٍ ، وأنه خَلَقَ الموتَ والحياة ، لتتاحَ فرصة الإحسانِ فى العملِ لمن أرادَ أن يُحسِنَ فيه ، وبعد ذلك الموت والآخرة ، والحسابُ والجزاءُ .

وتجدُ فى الآيتين كلمتين متضادَّتينِ فى المعنى هما : « الموت » و « الحياة » ، ومع هذا التضادِّ الذى يثيرُ اليقظة والانتباهَ ترى أن هاتينِ الكلمتين قد ائتلفتا أجمل ائتلافٍ فى إطار الفكرة ، وساعدتا على انتقالِها أوضح وأقوى .. ومثلُ هذا اللونِ من التعبير يسمَّى المطابقة .

انتقل إلى النموذج الثانى تجد آيةً كريمة تتحدثُ عمن يخونونَ ويحاولون أن يتخفَّوا عنِ الناس ، ويأْتمروا بعيداً عن الأعينَ ، ناسين أن عين الله تراهم ، وأنه سيجزيهم بما صَدَرَ منهم .

وتجدُ فى هذا النموذجِ مطابقة بين : « يستخفون » و ـ « لايستخفون » والفعلان فيه ـ كما ترى ـ متحدان ، ولكن التضاد بينهما جاءَ من ورود الأول مُثْبتاً ، والثانى منفياً بحرف النفى « لا » .

ولعلك ترى أن هذا التضادَّ قد أبرز غفلةَ الخائنين ، وسوءَ تقديرهم ، وذلك لاستخفائِهم من البشر الذين لا يملكون من أمرهم

شيئا ، وعدمِ استخفائِهم من اللهِ الذى يرى كلَّ شيءٍ ، وبيده كلُّ أمرٍ .

***

وفى النموذج الثالثِ ترى نصاً قرآنياً ، يوازنُ بين صنفَين من الناس : صنف يعطى من ماله ، ويتقى الله ، فيلتزمُ ما أمر به ، ويؤْمن بالدِّينِ إيماناً صادقاً ، وجزاءُ مثلِ هؤلاءِ الجنة ، وصنف يبخل بما فى يده ، ويظنُّ نفسه فى غنىً عن ربه ، ويكذبُ بدينه ، وجزاءُ مثل هؤْلاءِ النار .

***

وفى الآيتين مطابقةٌ ، ولكنها بين أكثر من لفظتين ، وهى — كما ترى — موازنةٌ ينتقل فيها الذهن من حالة مشرقة غايةِ الإشراق إلى أُخرى مناقضة لها كلَّ المناقضة ، وفى هذه الانتقالة من إثارة الانتباه ، ومن إظهار الضدِّ لضدِّه ، ماينقلُ الفكرة إلى الذهنِ أشدَّ وضوحاً وقوة .. وقد قيل « وبضدِّها تتميزُ الأشياءُ »

***

وفى النموذجِ الرابعِ ترى بيتين لابن الرومى فى رثاءِ ولده ، ومما يرثيه به أنه حرِم رؤْيته مع قرب مزاره ، وأن المنايا اختطفتْه ، فأنجزتْ بذلك وعيدها ، وتبددتِ الآمال التى كانت معقودة به ، وأخلفت بذلك ما كان يترْجى منها .

وفى البيتين — كمـا ترى — مطابقتان الأولى بين « المزار البعيد على قربه ، القريب على بعده » . والثانية بين «إنجاز المنايا وعيدها ، وإخلاف الآمال وعدَها » .

***

وفى كلتا المطابقتين ترى تضاداً بين أكثر من لفظة ، وترى وضوحاً وقوة فى الفكرة ، مع زفرة حزينة ملتاعة .

***

وفى النموذج الأخير ترى أبياتاً لحافظ إبراهيم ، فيها عبرة ساخرة من تحول الأيام ، وتقلب الدهر ، « فكوكب النحس مسرع فى سيره بالقصر ، وكوكب السعد متوان عنه ، والليث يخطر فى فنائه بعد أن كان هذا الفناء مسرحاً للحسان ، والزوار يعطون المال ليد خلوه بعد أن كان هذا القصر مصدراً للعطاء ، وكلها مطابقات فيها جمال الطباق ، وقوته فى أداء الفكرة والتعبير عن الشعور » .

وفى النموذج السادس ترى الصاحب بن عباد يرثى كثير بن أحمد ، فيذكر أن الرزء به كبير ، ويناشد الناس أن يتركوه والعلا ، ليبكياه معا .

وتقف أمام الشطر الأخير من البيتين : « فمثل كثير فى الأنام قليل » ، فتحس أن الشاعر جاء بهذه المطابقة ، وساق فيها لفظة « قليل » ، ليقابل بها لفظة « كثير » ، وهى اسم المرثى ، وأنه تكلف المعنى وهو يلعب بهذه اللفظة .

***

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

١ — أن المطابقة هى أن تأتى بكلمة أو أكثر ، ثم بما يقابل ذلك فى المعنى .

٢ — أن المطابقة الفنية هى التى تقتضيها الفكرة ، ويتطلبها

الموقف ، ولا تُجْتَلَبُ اجتلاباً لمجرد الصنعة اللفظية .

٣ ـ أن جمالَ المطـابقة نابعٌ من : أن عَرْضَ المتضاداتِ فى نَسَقٍ مؤتلف يثير الانتباه إلى الفـكرة ، فيشتد تقبُّلُ النفسِ لهـا ورسوخُها فيها .

• وأن الأضـداد يُظْهِرُ بعضُها بعضاً ؛ وبذلك تزدادُ الفـكرة وضوحاً .

وكلُّ مطابقةٍ لها بعد ذلك جمالٌ خاص بها ، يتضحُ مما تضفيه على الكلام من دلالاتٍ ومشاعر .

***

تمرينـات

١ ـ قالَ تعالى :

« وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »(١) .

(أ) بماذا وصفت الآيتان أكثرَ الناس ؟

(ب) فى الآيتين مطابقةٌ . وضّحها .

(ج) بين ما فى هذه المطابقة من جمالٍ بلاغى .

---

(١) سورة الروم . الآيتان : (٦ ، ٧) .

٢ ـ لابن الرومىّ فى وصف طرائح الطير التى صادها الرماة :

طرائحُ من ســــودٍ وبيضٍ نواصعٍ
تخالُ أديم الأرضِ (١) منهنّ أبقعا (٢)

نؤلّفُ منهــا بين شتّى وإنمـــا
تشتّت من ألافِهـــا ما تجمعـــا

فكم ظاعنٍ منهن مزمعٍ رحلةٍ (٣)
قصرْنا هــواهُ دون ما كان أزْمعَا

وكم قادمٍ منهن مرتادِ منزل (٤)
أناخ به منا منيخٌ فجعجعا

(أ) عبر بقلمك عن الصـــورة التى رسمها ابن الرومىّ لطرائح الطير .

(ب) فى الأبيات مطابقاتٌ . وضّحها .

(ج) أوحى الموقفُ إلى ابن الرومىّ بهذه المطابقات . بين ذلك .

(د) تحدث عما فيها من جمالٍ بلاغىّ .

٣ ـ لدعبلٍ يتحسّرُ على ما أصاب آلَ البيتِ على يد الأمويين :

ألم تر أنى من ثلاثين حِجــــةً
أروحَ وأغـــدُو دائمَ الحسرات

---

(١) أديم الأرض : سطحها .
(٢) أبقع : فيه سواد وبياض .
(٣) مزمع رحلة : عازم عليها .
(٤) مرتاد منزل : باحث عنه .

أرى فيئَهُم في غيرهم متقسَّماً
وأيديهمُ من فيئهم صَفِراتِ (١)
فآلُ رسولِ الله نُحْفٌ جسومُهم
وآلُ زيادٍ حُفّلُ القَصَراتِ (٢)
بناتُ زياد في القصور مصونةٌ
وآلُ رسول الله في الفلوات

(أ) عبر عن معنى الأبيات في أسلوبٍ أدبي .

(ب) في الأبيات مطابقات . وضّحها ، وبين مدى ارتباطِها بالموقف الذي أوحى بها .

(ج) ماذا يعجبُك في هذه المطابقات من الناحية البلاغية ؟ بيّن ماتقول .

٤ ــ لإيليا أبي ماضي :

رُبَّ ذهنٍ مثل النهارِ مضيءٍ
صار بالبؤْس كالظلامِ دَجيّا
كم أثيمٍ في السجن لو أدركتْه
رحمةُ الله كان حُراً سريّا

(أ) وضّح فكرة البيتين بعبارتك .

(١) صفرات : خاليات .
(٢) القصرات : جمع قصرة ، وهي العنق ، وحفل القصرات : ضخام الأعناق .

(ب) تحدثْ عن المطابقة فيهمـــا ، وبيِّن رأيك فيهـــا من الناحية الفنية .

٥ ــ لدعبلٍ :

لا تعجبى يا سلْم من رجلٍ ضحِكَ المشيبُ برأْسه فبكى

(أ) اشرح البيت .

(ب) وضح المطابقة فيه .

(ج) يرى بعض النقاد أن المطـــابقة فى البيت مبنية على الصنعة اللفظية .

فما رأيك ؟ بيِّن سبب ماتقول .

التورية

١ ـ لسراج الدين الوراق :

وقفتُ بأطـــلال الأحبــة سائلاً
ودمعىَ يسقى ثَمّ عهداً ومعهَداً
ومن عجبٍ أنى أروِّى ديارَهم
وحظّىَ منها حين أسألها الصَّدَى (١)

٢ ـ وقال ابنُ دانيال (٢) :

ياسائلى عن حِرفتِى فى الورى يا ضيعتى فيهم وإفــــلاسى
ما حالُ منْ درهمِ إنفـــاقه يأخــذه منْ أعيُنِ النـــاسِ

٣ ـ وقال نصير الدين الحمامى :

أبياتُ شــعرِكَ كالقصـــو رِ ولا قصورَ بهـــا يعوق
ومن العجائب لفظهـــا حرٌّ ومعنـــاها رقيق

التوضيح

قد يعرِضُ من المواقف ما يُلجىءُ المتكلم إلى أن يحتال لإخفاءِ المعنى الذى يريدُه ، ويتلطَّف لستره ، فيعبِّرَ عنه بلفظة أو تعبير يحمل معنىً آخر يتبادرُ إلى الذهن ، فيصرفه عن المعنى المقصود ، الذى

(١) الصدى : الظمأ أو مايجيبك بمثل صوتك .
(٢) هو شمس الدين الموصلى . كان له دكان يبيع فيه الكحل ، ويعالج العيون عند باب الفتوح بمصر ، وتوفى سنة ٧١٠ هـ .

يحتاج فى الوصول إليه إلى التأمل وإعمال الفكرِ فى الموقف الذى يعبِّرُ عنه الأديب ، وفيما يحيطُ به من قرائنَ وملابساتٍ .

وفى ضوءِ هذا التمهيد ننظرُ إلى الأمثلة السابقة :

تأمل المثال الأولَ تجدْ أن الشاعرَ في البيتين قد وقفَ بدارأحبابه، وقد أصابها البلى ، يناجيها ، ويسائلُها عما كان له بها من ذكرياتغالية، وهاجَه الموقف فسالت دُموعَه مدرارا ؛ حتى أرْوَت الدار ، ولكنه لم يظفرْ من مساءَلتها بغير « الصدى » . وقد يتبادرُ إلى الذهن أن المرادَ من هذه الكلمة « العطش » ؛ وذلك لأنها وردت بعد قوله : « أُروِّى ديَارهم » ، ولكن المعنى الذى يقتضيه الموقفُ ، وإن تلطَّفَ الشاعر فى سَتْرِه هو أنه لايحظى من مناجاتِه لهذه الديار الغالية عنده إلا بصدى صوته يتردد فى أنحائِها الخربة .

وهكذا ترى أن كلمة « الصدى » تحملُ معنيين مختلفين : أحَدُهما ظاهر قريب غيرُ مقصـود وهو « العطش » ، والآخر بعيـدٌ خَفِىٌّ مقصودٌ ، وهو « تردُّدُ الصوت » ، وهذا مايسمَّى فى البـلاغة « التورية » .

***

وفى المثالِ الثانى ترى ابن دانيال يتخيلُ أن هناكَ من يسأله عن حرفته التى يمارسُها ، وهو ناقمٌ عليها ؛ لأنها من أسـباب ضـياعه وإفلاسه ، ولا يريد أن يصرِّحَ بهذه الحرفة ، فيطلب إلى سائله أن يتصورَ حاله فى حرفتِه ، والدرهمُ الذى يكسبُه منها إنما « يأخذه من أعين الناس » .

وقد يتبادر إلى الذهن من هذا التعبير أن القائلَ يكسب مايَكسب عن طريقِ علاجِ العيون ، وقد كان فعلاً صاحبَ حانوت لبيعِ الكحل ، ولكن المعنَى المقصود الذى يريدُه هو أن المالَ الذى يكْسبه من حرفته صعب المنال ، كأنما يأخذه من أعين الناس .

***

وفى المثال الثالث ترى نصيرَ الدين الحمامىَّ يمدحُ أحدَ الشعراء بأن أبيات شعره رائعةٌ كأنها القصورُ ، وليس بها قصورٌ أو ضعفٌ ، يغضُّ من روعتها ، ويتعجبُ من جمالها فى ألفاظِها ومعانيها ، فيصفُ ألفاظَها بأنها حرةٌ ، ومعانيها بأنها رقيقة .

وإذا تأملت كلمة (رقيق) فى البيت الثانى تجد أن لها معنيين :

الأول مأْخوذ من الرِّقِّ وهو العبودية ، وهو المعنى القريب الذى قد يتبادرُ إلى الذهن ، بعد ذكر لفظة (حر) ، والثانى هو المعنى الذى يقتضيه الموقفُ الذى يقْصِدُه الشاعر ، وقد ترتَاحُ إلى التورية فى المثالين : الأول والثانى ، وتجدُ فيها شَيئا مما يُبرر إخفاءَ المعنى البعيدِ ، والتورية عنه .

كما أنك تجدُ فيها شيئا من البراعة التى تخفّف من تكلّف الصنعة .

أما التوريةُ فى المثال الثالث فالتكلّفُ فيها واضحٌ ؛ لأن وصفَ ألفاظ الشعر بأنها حرةٌ لا مسوِّغَ له إلا ما أرادَه الشاعرُ من التمهيد للتورية .

الخلاصة :

١ ـ التورية : أن يَذْكُرَ المتكلمُ لفظةً لها معنيانِ : قريبٌ ظاهرٌ غيرُ مرادٍ ، وبعيدٌ خفيٌّ هو المراد .

٢ ـ فى التورية استغلالٌ لثراءِ اللغة فى دلالات الألفاظ ، وفيها لون من المفاجأة التى تنبهُ الذِّهنَ ، وتبعثه على التأملِ وإعمالِ الفكرِ فى الكلامِ ودلالاته اللغوية والشعورية ، من خلال السياقِ والقرائن.

٣ ـ يتحققُ جمالُ التوريةِ إذا كانت استجابةً لموقفٍ يستلزمها، وكانت غير متكلفة ، ولم تكن مجرد لعبٍ بالألفاظ ، دون طائل فى أداءِ الأفكار والتعبير عن المشاعرِ .

وقد شاعت التوريةُ فى عصور الضعف اللغوىِّ حين انصرفَ الأدباءُ إلى ألوانٍ من الصنعة الشكلية فى الكلامِ متوهمينَ أنها ضروريةٌ لتزيينه وتجميله .

تمرينات

١ ـ قال القاضى عياضٌ فى صيف بارد الجوِّ :

كأنَّ كانونَ أهدَى من ملابسه
لشهر تمّوز أنواعا من الحلل

أو الغـزالةَ من طول المَدَى خرِفَتْ
فما تفرِّق بين الجَدْىِ والحَمَلِ (*)

(ا) اشرح البيتين بعبارتك .

(ب) بين مافيهما من تورية .

(ج) مارأيُكَ فى هذه التورية ؟ بين السبب .

٢ — لحافظ إبراهيم فى مداعبة شوقى :

يقولون إن الشوقَ نارٌ ولوعة فما بالُ شوقى اليومِ أصبح باردا ؟!

(ا) عين موضعَ التورية فى هذا البيت .

(ب) وضح سرَّ الجمالِ فيها .

٣ — وقال بدرُ الدين الذهبى :

ياعاذلى فيه قل لى إذا بدا كيفَ أسْـلُو
يمـرُّ بى كلَّ وقت وكلمـا مـرَّ يحلُو

(ا) اشرح هذين البيتين .

(ب) وضح التوريةَ فيهما ؟ .

(ج) مارأيك فيها من الناحية الجمالية ؟

٤ — وقال ابنُ نبَاتة المصرى :

والنهرُ يشبهُ مِبرَدًا فلأجْلِ ذا يَجْلُو الصدى

(*) كانون : من اشهر الشتاء ، وكانون الأول هو : شهر ديسمبر وكانون الثانى هو شهر يناير ، وتموز هو شهر يوليو .

الغزالة : المراد بها فى البيت ، الشمس ، وهى أيضا الحيوان المعروفُ ، الجدى والحمل من انواع الحيوان ، وهما أيضا من الأبراج الفلكية .

(ا) فيم يُشبهُ النهرُ المبْرِد ؟

(ب) عين موطنَ التورية فى البيت .

(ج) هل تعجبُك هذه التورية ؟ بين رأيك ؛ مع ذكر السبب .

٥ ــ من موشحةٍ أندلسيةٍ لأبى عبد الله بن الخطيب :

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى
يازمانَ الوصلِ بالأندَلُسِ
لم يكن وصلُكَ إلا حُلُماً
فى الكرى أو خِلسةَ المختلس

***

وروى النعمان عن ماءِ السما كيف يروى مالكٌ عن أنس (*)
فكساه الحسنُ ثوباً مُعْلَماً يزدهى منه بأبهى مَلْبَسِ

(ا) اشرح الأبيات بعبارةٍ أدبية .

(ب) ما المرادُ من التورية فيها ؟ وما مدى ارتباطها بالموقف الذى يعبر عنه الشاعر ؟

(ج) مارأْيك فى هذه التورية من الناحية الجمالية ؟

(*) النعمان : اما شقائق النعمان وهى زهر أحمر ، واما أحدملوك الحيرة .
وماء السماء : اما المطر ، واما أحد ملوك الحيرة وهو جد النعمان .
ومالك هو الامام مالك بن أنس امام المذهب المشهور .

الخطبة

(أ)

لأبى بكرٍ يوم تولّى الخلافة . حَمدَ اللهَ وأثنَى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس . إنى وُلّيتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطلٍ فقوِّمونى (١) . أطيعونى ما أطعتُ الله فيكم ، فإن عصيتُه فلا طاعةَ لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخذَ الحقّ له ، وأضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ الحقّ منه . أقولُ قولِى هذا ، وأستغفرُ الله لى ولكم » .

(ب)

لأبى جَعْفرٍ المنصور بعد مقتلِ أبى مُسْلمٍ الخراسانى :

« أيها الناس . لا تَخْرُجُوا من أُنسِ الطاعة (٢) إلى وحشةِ المعصية ، ولا تُسِرُّوا غِشّ الأئِمَّة ؛ فإنه لم يُسرّ أحدٌ قطُّ مُنْكرةً إلا ظهَرَتْ فى آثار يده ، وفلتاتِ لسانهِ (٣) ، وصفحات وجهِه ، وأبداها الله لإمامه ؛ لإعزاز دينه ، وإعلاءِ حقه .

إنّا لن نَبْخَسَكم حقوقَكُم (٤) ، ولن نبْخسَ الدين حقّهُ

---

(١) قومونى : أصلحوا اعوجاجى .
(٢) أنس الطاعة : أمنها وهدوئها .
(٣) فلتات لسانه : زلاته .
(٤) لن نبخسكم حقوقكم : لن ننقصكم حقوقكم .

عليكم . إنه من نازَعنا عروةَ هذا القميص أجزرناه خبيءَ هذا الغمد (١) ، وإن أبا مسلم بايَعنا وبايَعَ الناسَ لنا على أنه من نَكَثَ بنا (٢) فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمَه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعايةُ الحق له ، من إقامة الحدِّ عليه » .

(ج)

للمأمون حين تولّى الخلافة . صَعِدَ المنبر ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ، وصلّى على نبيه ، ثم قال :

أيها الناس : إنى جعلتُ لله على نفسى — إن استرعانى أُمورَكم — أن أطيعَه فيكم ، ولا أسفكَ دماً عمداً لاتحِلُّه حدودُه ، ولاتسفكه فرائضه ، ولا آخذَ لأحد مالا ولا أثاثا ، ولانِحْلةً (٣) تحرُم علىَّ ، ولا أحكُمَ بهواى — فى غضبِى ولا رضاى — إلا ما كان فى الله وله .

جعلت لله عهدًا مؤكدا ، وميثاقا مشدَّدًا أنّى أفى رغبةً فى زيادته إياى فى نعمتِى ، ورهبةً من مساءَلته إياى عن حقّه وخَلْقه ؛ فإن غيرتُ أو بدّلتُ كنتُ للغيرِ مستأهِلاً ، وللنّكال (٤) معرَّضاً ، وأعوذُ بالله من سخْطه ، وأرغبُ إليه فى المعونة على طاعتِه ، وأن يحولَ بينى وبين معصيته » .

---

(١) اجزرناه خبىء هذا الغمد : خبىءالغمد هو السيف ، والمراد قتلناه بالسيف .

(٢) نكث بنا : غدر بنا .

(٣) نحلة : عطاء .

(٤) النكال : العذاب .

(د)

من خطبةٍ لسعد زغلول فى احتفالِ النوابِ بأولِ انتخاب لمجلس نيابىٍّ مُثِّلَتْ فيه الأمة سنة ١٩٢٤ :

« سادتى . زملائى :

ما تهيبتُ القولَ فى مَحفلٍ تهيبى منه فى هذا الاحتفال ، ولعلَّ السرَّ فى ذلك أنه أول احتفال تمثلت فيه الأمةُ تمثيلاً صحيحاً ، وظهرت فيه وحدتُها أكمل ظهور ، ولاتحادِ الأُممِ خشيةٌ تملأُ النفوس ، وهيبةٌ تفيض بها القلوب .

إن الفرحَ بانتصارِنا — وإن كان الانتصارُ عظيما — لا ينبغى أن يُلهيَنا عن عظيم المسئوليةِ التى ألقاها هذا الفوزُ الباهرُ على كواهِلنا ، وحصرها فينا ؛ فيجبُ علينا أن نتمثلها أمام أعيننا ، ونشتغل بإعدادِ الوسائلِ لحُسن تَحَمُّلها ، وأن نوطِّد (١) العزمَ على مجانبة الراحة ، وتحملِ المتاعب ؛ حتى نخرجَ من عهدتِها كراماً شرفاءَ ، كما تحملناها كراما شرفاء .

إن أهمَّ مشكلة — على مجلسِ النواب حلها — هى مشكلة الاستقلال الذى تتوقُ البلادُ للحصول عليه ، والتمتعِ بنتائجه الحقيقية ، وثمراته الطيبة ، وأكبر مستَهل لحلِّها اتحادُ الأمة عليها بلا استثناءٍ ، وعقدُها العزم على أن تصلَ إلى المرغوبِ منها ، مهما كلّفها هذا من المتاعبِ والضحايا ، فوزارةٌ يَسنِدُها مجلسٌ

---

(١) نوطد : نثبت ونقوى .

نيابىٌّ ، ومجلسٌ نيابىٌّ تؤيده أُمة ، وأمةٌ يســودُ فيهــا اتحــادٌ قوىٌّ لا يُضَيِّعُ الله لها سَعْيا »

***

فى النماذج السابقة تقفُ أمامَ أربعة نصوص من الخطابة : الأولُ من عَصر صدر الإسلام لأبى بكرٍ رَضىَ اللهُ عنه ، والثــانى من العصرِ العباسىِّ لأبى جعفرٍ المنصور ، والثالثُ من ذلك العصــرِ أيضا للمأمون ، والرابع من العصر الحديثِ لسعد زغلول .

وفى وقفةٍ منك متأنيةٍ أمام هذه الخطب ـ ترى أن أبا بكر يعلنُ النــاسَ فى خطبتِـه بالخطِّ الذى سيسيرُ عليــه فى حــكمه لهم ، وسياسته فيهم ، وهو يمهدُ لموضوعهِ بتمهيد مركز قوى : « أيهــا الناس . إنى وليتُ عليكم ولستُ بخيركم . . فقومونى » ، وينتهى بخاتمة قوية كذلك : « ألا إن أقواكم عندى . . حتى آخذَ الحق منه».

***

وترى أن أبا جعفرٍ المنصورَ يعالجُ فى خطبتِـه ماقد يثيرهُ مقتلُ أبى مسلم من سُخْط ، فيعرضُ جنايَته ،وماوقعَ منه من غدر بعهد العباسيين ، ويمهدُ لذلك بتمهيد يستميلُ به الناسَ إلى الطــاعة ، ويحذرهم من رخامة المعصية ، كما يختِـمُها بما يُشْعِرُ أن الحــقَّ فوقَ كلِّ شىءٍ ، وأن تطبيقَه على الناسِ جميعا أمرٌ لامحيص عنه .

***

أما خطبةُ المأْمونِ فموضُوعها الأساسى عهدٌ عليه ، يعاهدُ فيه

الله أن يُقيمَ في الدولة حكما عادلا آمنا ، لا يرزأُ أحدًا في نفسِه ، أو مالِه ، أو حقٍّ من حقوقه .

والمأمونُ يدخلُ في موضوعه دونَ تمهيد ، ويختمُه بالرجوعِ إلى الله ، عائذًا به مما يُسخِطه ، راغبا إليه في أن يعينَه على الطاعةِ ، ويوفقه إليها .

***

أما الخطبة الأخيرةُ لسعد زغلول فمحورُها المسئوليةُ التي ألقاها الانتصارُ الباهر في الانتخابات عليه ، وعلى زملائِه : مسئوليةُ الاستقلال ، والتمتع بنتائجه الحقيقية . والخطيب يمهدُ لموضوعه بهذا التهيب الذي يَستهِلُّ به خطبتَه ، كما أنه يختمُها بالتركيز على وَحْدَةِ الأُمة ، وأثرِها في تحقيق الآمال التي تطمح إليها .

ومن استعراض هذه الخطب وغيرِها مما مرَّ بِك في العصور الأدبية التي درستَها يتبينُ لك :

***

أولا : أن الخطابَة فنٌّ من فنونِ النثرِ ، يقوم على الاستمالة ، والإقناع ؛ ففيها يتحدَّثُ الخطيبُ إلى جمهورٍ من السامعين ، في موضوعٍ ما ، ليقنعَهم بوجهةِ نظرِه ، ويستميلهم إلى الأخذ بها

ثانيا : تتكونُ الخطبةُ غالبا من ثلاثة أجزاء :

(ا) المقدمة : وبها يمهدُ الخطيبُ لموضوعِ الخطبة ، ويهيِّئُ نفوسَ السامعين لتقبُّلِه .

(ب) الموضوع : وهو محور الخطبة ، وفيه تعالَجُ المشكلةُ ،

أو الفكرةُ أو الرأىُ الذى يريدُ الخطيبُ أن يعالِجَه ، وكثيرا مايقترنُ بالبراهين التى تؤيِّدُه .

(ج) الخاتمةُ : وهى النهايةُ التى تنتهى بها الخطبةُ ، وقد تكون تركيزًا للفكرة ، أو تأكيدا لها ، أو دعوةً إلى الأخذ بها .

ثالثا : أسلوب الخطبة :

يختلفُ أسلوبُ الخطبة باختلافِ الخطباءِ ، وباختلافِ موضوعِ الخطبةِ : دينيةً ، أم سياسيةً ، أم عسكريةً ، أم قضائيةً ، أم غيرَها.

ومن اليسيرِ ، مع هذا الاختلافِ ، أن ترى سماتٍ وملامحَ أساسية تميِّزُ الخطبةَ الجيدةَ ، والأسلوبَ الخطابيَّ الجيد .

فما يميز الخطبةَ الجيدة :

١ ــ براعةُ الاستهلالِ فى المقدمة ، واتصالُها بموضوعِ الخطبة.

وترى ذلك فى خطبةِ أبى بكرٍ رضِى اللهُ عنه ، فقد استهلَّها بما يُشعِرُ بالتواضع ، وبما يُشْرِكُ الناسَ معه فى توجيهِ الحكمِ وفى تبعَاتِه .

وترى ذلك أيضا فى التهيئةِ الذى بدأَ به سعدٌ خطبتَه ، والمكانةِ التى جعلَها لأولِ احتفالٍ تتمثلُ فيه وحدةُ الأمة ، وكلا التمهيدين وثيقُ الاتصال بموضوع الخطبةِ ملتحمٌ بها ، حتى كأنه جزءٌ منها .

٢ ــ وحدةُ الموضوع : وذلك بأن يكون للخطبةِ موضوعٌ أساسىٌّ يرتبطُ به كل مايساقُ فيها من أفكارٍ ، ليتلقَّاه السامعون جليًّا ، قويا ، غيرَ مضطرب ولا مشتَّتٍ ، وفى الخطبِ السابقة تتضحُ لكَ وحدةُ الموضوع .

٣ ـ أنْ تنتهيَ الخطبةُ بخاتمةٍ يَظَلُّ صداها في الأسماعِ والقلوب ، كما ترى في حديثِ سَعْد عن الوَحْدةِ بينَ المجلسِ النيابي ، والوزارةِ ، والأُمة .

***

ومما يميز الأُسلوبَ الخطابيَّ الجيد :

١ ـ أنه يميلُ إلى الإطناب ، ولا سيما في المواطِن التي يَهِمُّ الخطيبَ أنْ يؤكد كلامَه فيها ، ومن الإطناب الإتيانُ بالجملِ المترادفةِ المعنى ، كما في قولِ المأمون : جعلتُ لله عهداً مؤكَّداً ، وميثاقا مشدداً ـ أني أَفي رغبةً في زيادتِه إياي في نعمتي ، ورهبةً من مساءَلتِه عن حقِّه وخَلْقِه » .

ومنهَ أيضاً التفصيلُ كقولِ المنصور : « إلا ظهرت في آثار يدِه . وفلتاتِ لسانِه ، وصفحات وجهه » .

ولكن الإطناب إنما يجمُلُ إذا جاءَ بقَدْرِ مايتطلبهُ الموقف ، وسِيقَ بصورةٍ جذابة ، تزيدُ من الانتباه إلى الكلام ، ولا تؤدِّي إلى نفور أو ملل ، ومن صور الإطناب الجذابةِ قولُ سعد : « نخرجُ من عهدتِها كراماً شرفاء . كما دخلناها كراماً شرفاءَ » .

٢ ـ التنوعُ في أُسلوب الخطبة بينَ الخبرِ والإنشاءِ ، وبين الخطاب والغيبة ، وغيرها مما يُفيضُ عليه حيويةً متجددةً ، تشدُّ الأسماع إليهِ ، فلا تنصرفُ عنه .

٣ ـ وضوحُ الفكرة ؛ لأن الغموضَ كثيرا ما يؤدِّي إلى كدِّ الذهن

ثم الملل ، والانقطاعِ عن الخطيب .

ومن عوامل وضوحِ الخطبةِ ورسوخِها فى الأذهان أن تأتِى الفكرة مصحوبةً بالتعليلِ لها ، وبالأدلة والبراهينِ التى تأخذُ السامعينَ إلى التسليمِ بها ، انظر الى أبى جعفر المنصور ، وهو يبررُ مقتلَ أبى مسلمٍ تجد أنه أبرزَه غادرًا ، وجعلَ قتلَه عدالةً ، واتخذَ ذلك من منطق أبى مسلمٍ نفسه .

٤ ـ اللعب بمشاعر السامعين عن طريق تعرُّفِ نفوسهم ، ومايستثيرُ عواطفهم فى كلِّ موقف ؛ كأن يضرب على الوَترِ الدينىِّ كما فى خطبةِ المأمون ، أو الوترِ الوطنىِّ كما فى خطبة سعدزغلول،

وكأن يستثير مشاعرهم بنادرةٍ ذكية أو لفتةٍ فى الكلامِ ترضى نفوسهم ، كما فعل سعدٌ حين جعلَ الحديثَ للمتكلم بَدَل المخاطب فى قوله : « فيجبُ علينا أن نتمثّلَها (المسئولية) أمام أعينِنَا » ؛ لأنه بهذا أشعر السامعين بأنه مثلُهم ، وأن العبءَ واقعٌ عليه وعليهم .

وقد تكون الاستثارةُ عن طريق سوْق المثل أو الحكمةِ ، أو الاقتباسِ من القرآن ، أو من الشعر ، وعن طريقِ استخدامِ التشبيهاتِ ، والاستعاراتِ والمطابقاتِ فى أماكنها ، كما فى قول المنصور : « لا تخرجُوا من أُنسِ الطاعةِ إلى وحشة المعصية »،وكما فى قول أبى بكر : « ألا إن أقواكم عندى الضعيفُ .. » إلى آخر الخطبة .

٥ ـ إيثار الجمل القصار ذاتِ الرنين الموسيقىِّ القوىِّ الوقع فى الآذان والنفوس ، كقول أبى بكر : « إن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى

وإنْ رأيتموني على باطلٍ فقوِّموني » ؛ وذلك لأن الوقع الموسيقيّ القويّ المتصل بالفكرة يزيدُ من قوتِها ، ومن تأثيرِها في النفس ..

وهكذا ترى أن سرَّ جمال الأسلوب الخطابيِّ يكمن في قدرته على أن يسيطرَ على العقول والمشاعر ، والخواسِّ .. عن طريق الفكرةِ الواضحةِ المؤيدةِ بالأدلة ، والمؤكدة في المواطن المهمة ، وعن طريق تنوع الأسلوب ، والضرب على أوتار القلوب ، ثم عن طريق الإيقاع الموسيقيِّ القويِّ الأخّاذ .

تمرينات

١ — لأبي بكر رضي اللهَ عنه يوم السقيفة . حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس . نحن المهاجرون ، أولُ الناسِ إسلاما ، وأكرمُهم أحسابا (١) ، وأوسطُهم دارا ، وأحسنُهم وجوها ، وأكثرُ الناسِ ولادةً في العرب ، وأمسهم (٢) رحِما برسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمْنا قبلَكُم ، وقدِّمْنَا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقُون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان » .

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار : إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيءِ . وأنصارُنا على العدو . آويتُم وآسيتم فجزاكم الله خَيْرا ، فنحنُ الأمراءُ ، وأنتم الوزراءُ ، لا تدين العربُ إلا لهذا الحيِّ من قريش ، فلا تَنْفِسُوا على إخوانكم المهاجرين ما مَنَحَهم اللهُ من فضله .

---

(١) أحسابا : الأحساب مفاخر الآباء والأجداد .
(٢) أمسهم : أقربهم .

اقرأ هذه الخطبةَ ، ثم أجِب عما يأتى :

(ا) ماموضوع هذه الخطبة ؟ .

(ب) بماذا قدَّمَ أبو بكرٍ رَضِىَ الله عنه لهذا الموضوع ؟

(ج) وبماذا خَتَمَ خطبته ؟

(د) مقدمة الخطبة تهيىءُ الأذهان لتقبلِ مايدعو إليه الخطيب . وضح ذلك .

(هـ) ما قيمةُ خاتمة الخطبةِ من الناحية الفنية ؟

(و) تحدث عما ترى فيها من مميزاتِ الأسلوبِ الخطابى فى : بناءِ الجمل . وفى الإيقاع الموسيقى .

***

٢ ــ لعبد الله بن طاهرٍ يخطبُ فى جنْدِه :

« إنكم فئةُ الله المجاهدون ، المدافعون عن دينـه ، الذائدونَ عن محارمه (١) ، الداعونَ إلى ما أمرَ به من الاعتصامِ بحبله (٢) ، والطاعةِ لولاة أمره ، الذين جعلهم رعاةَ الدين ، ونظامَ المسلمين .

فاستنجزوا موعودَ الله ونصرَه بمجاهدةِ عدوه وأهلِ معصـيته الذين أشِرُوا (٣) وتمرَّدوا ، وشقوا العصا ، وفارَقوا الجمـاعة ،

---

(١) الذائدون عن محارمه : المدافعون عن دينه .
(٢) الاعتصام بحبله : التمسك به .
(٣) أشروا : بطروا .

ومرَقوا من الدين ، وسَعَوْا في الأرض فسادا ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « ان تنصروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامَكم » .

فليكن الصبرُ مَعْقِلَكم الذى إليه تلجَئون ، وعُدَّتكم التى بها تَستظهرون (١) ، فانه الوَزرُ المنيعُ (٢) الذى دَلّكم الله عليه ، والجُنّة (٣) الحصينةُ التى أمَركم الله بلباسها . غضوا أبصارَكم ، واخفتوا أصواتَكم في مصافّكم ، وامضوا قدُما على بصائركم ، فارغين إلى ذكرِ الله ، والاستعانةِ به كما أيَّدَكم الله بعزِّ الصبر ، وَوَليكم بالحياطة والنصر . »

اقرأ الخطبة ، ثم أجب عما يأتى :

(ا) مانوعُ هذه الخطبة ؟

(ب) ماموضوعُها ؟

(ج) ما القيَمُ الفنيةُ للمقدمة والخاتمةِ فيها ؟

(د) من مميزات هذه الخطبة :

- الترادفُ المعنوى .
- الضربُ على الوترِ الدينى .
- الاقتباس من القرآن الكريم .
- الإيقاعُ الموسيقى للجمل والتراكيب .

بين ذلك منها .

---

(١) تستظهرون : تستعينون .
(٢) الوزر المنيع : الحصن القوى .
(٣) الجنة : ما يقى ويحفظ .

(هـ) الألفاظ ملائمةٌ للموضوع فى الخطبةِ . وضح ذلك .

٣ ـ من خطبة لمصطفى كامل بالإسكندرية فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ م :

« إن العامل الواثق من النجـاح يرى النجـاحَ أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلالَ المصرىَّ ، ونبتهجُ به ، وندعو له كأنه حقيقةٌ ثابتة . وسيكونُ كذلك لامحالةَ ، فمهمـا تعددتِ الليالى ، وتعاقبت الأيام ، وتعاقب بعد الشروقِ شروق ، وأعقب الغروبَ غروب ، فإننا لا نَمَل ، ولا نقفُ فى الطريق ، ولا نقـولُ أبدا : لقد طالَ الانتظار .

إننا وجهنا قلوبَنَا ونفوسَنا وقوانا وأعمـارنا إلى أشرف غاية ، اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وإلى أعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها ، فلا الدسائسُ تخيفنا ، ولا التهديداتُ تَقِفُنَـا فى طريقِنا ، ولا الشـتائمُ تؤثِّرُ فينا ، ولا الخياناتُ تزعِجُنا ، ولا الموتُ نفسه يحولُ بيننا وبين هذه الغايةِ التى تَصْغُرُ بجانبها كلُّ غاية .

نعم . إنا لو تخطّفنَا الموتُ من هذه الدار واحدا بعدَ واحد لكانت آخرُ كلماتِنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا منا ، وليبارِكْ الله فيكُم ، ويجعل الفوزَ على أيديكم ، ويُخرج من الجماهيرِ المئاتِ والألوفَ بدلَ الآحاد، للمطالبةِ بالحقِّ الوطنى ، والحريةِ الأهلية، والاستقلالِ المقدَّس .

بلادى . بلادى . لك حبِّى وفؤادِى . لكِ حياتى ووجودى . لك

دمى ونفسى . لكِ عقلِى ولسانى . لكِ لبِّى وجنانى . فأنتِ أنتِ الحياة ، ولا حياةَ إلا بك يامصر .

(ا) يحاول مصطفى كامل فى خطبتِـه أن يستثيرَ مشاعر الأمل ، والثقةِ بالنفسِ ، وحبِّ الوطن ؛ فما قيمةُ ذلك فى خطبته ؟

٢ ـ من مميزاتِ أسلوبِ هذه الخطبة :

(ا) أنه يميلُ إلى الإطناب .

(ب) أن الجملَ تَطول فيه حينا وتقصرُ حينا .

(ج) أن الأسلوب فيه تنوع .

(د) أن الخطيب يؤكّدُ كلامه فى بعض المواطن .

(هـ) أن بعض الجمل قصار لها وقعٌ موسيقى قوى .

وضح ذلك من الخطبة ، وبين قيمته الفنية .

الرسالة

(أ)

كتب عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص والى مصرَ وقد استبطأَ ورودَ الخراج من قِبَلِه .

من عمرَ بن الخطاب إلى عمرو بن العاص :

« سلامٌ عليك فإنى أحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فقد عَجِبْتُ من كثرةِ كُتُبى إليك فى إبطائكَ بالخراج وكتابِكَ إلىَّ بِثُنيّات الطرق (١) . وقد علمتَ أنى لستُ أرضَى منك إلا بالحقِّ البين ، ولم أُقْدِمْكَ إلى مصر أجعلُها لكَ طُعْمةً ولالقومِك ، ولكنى وجهتك لما رجوتُ من توفيرِك الخراجَ ، وحُسنِ سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمِل إلىَّ الخراجَ فإنما هو فَىْءُ المسلمين ، وعندِى من قد تعلَمُ : قومٌ محصورون . والسلام . »

(ب)

من رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب التى أوصى فيها الكُتّابَ :

بسمِ الله الرحمن الرحيم

أما بعدُ : حفِظَكم الله يأهلَ صناعةِ الكتابة ، وحاطَكم ووفقكم وأرشدَكم ؛ فان الله عزَّ وجلَّ جَعَلَ الناسَ بعد الأنبياءِ

---

(١) بنيات الطرق : الطرق الصغيرة المتشعبة ، والمراد الأباطيل .

والمرسلين (صلواتُ الله وسلامهُ عليهم أجمعين) : أصنافا ، وإن كانوا في الحقيقةِ سواءً ، وصَرفَهم في صنوفِ الصناعات ، وضروبِ المحاولات إلى أسبابِ معاشِهم ، وأبوابِ أرزاقهم ، فجعلكم — معشر الكتاب — في أشرفِ الجهات : أهل الأدب ، والمروءاتِ ، والعلم ، والزراعة ، بكم تنتظمُ للخلافَةِ محاسنها ، وتستقيمُ أمورُها ، وبنصائحكم يُصلِحُ الله للخلقِ سلطانَهم ، وتعمُر بلدانُهم ، لايستغنى الملكُ عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعِهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يَبْطِشُون ؛ فأمتعكم اللهُ بما خَصَّكم من فضل فى صناعتِكم ، ولا نَزَعَ عنكم ما أضفَاهُ من النعمةِ عليكم . وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلِّها أحوج إلى اجتماع خلالِ الخيرِ المحمودةِ ، وخصال الفضل المعدودةِ منكم أيها الكتاب .

إن الكاتب يحتاجُ فى نفسِه ، ويحتاجُ منه صاحبُه الذى يَثِقُ به فى مهماتِ أموره : أن يكون حليما فى موضع الحلم ، فهيما فى موضع الحكم ، مقداما فى موضع الإقدام ، محجاما فى موضع الإحجام ، مؤْثرا للعفافِ والعدْل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عالماً بما يأْتى من النوازل ، يضع الأمور فى مواضِعِها ، والطوارقَ فى أماكِنها ، قد نَظَر فى كلٍّ فَن من فنون العلم فأحكمه ، وإن لم يُحكِمْه أخذَ منه بمقدارِ مايكتفى به . يعْرفُ بغريزةِ عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ، مايردُ عليه قبل ورودِه ، وعاقِبَةَ ما يصدُرُ عنه قبل صدورِه ، فيُعِد لكلٍّ أمر عدتَه وعتاده

ويهيىء لكل وجه هيئته وعادته . فتنافسوا يامعشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفهموا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية ؛ فانها ثقاف (١) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ؛ فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ؛ وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ؛ فان ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تضيعوا النظر في الحساب ؛ فانه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها (٢) وسفساف (٣) الأمور ومحاقرها ؛ فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة ، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والسخف والعظمة ؛ فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة (٤) ، وتحابوا في الله — عز وجل — في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم » .

(ج)

وكتب حافظ إبراهيم رسالة إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يهدى إليه الجزء الأول من ترجمته لكتاب البؤساء :

« إنك موئل البائس ، ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب — أيدك

---

(١) ثقاف السنتكم : ما تقوم به .
(٢) سنيها : شريفها . دنيها : حقيرها .
(٣) سفساف الأمور : رديئها وحقيرها .
(٤) الاحنة : الحقد .

الله — قد ألم بعيشِ البائسين وحياةِ اليائسين . وضعَهُ صاحبُه تذكرةً لولاةِ الأمور ، وسماه كتاب (البؤساءِ) ، وجعلَه بيتا لهذه الكلمةِ الجامعة ، والحكمةِ البالغة : « الرحمةُ فوق العدل » .

وقد عنيتُ بتعريبه ؛ لما بين عيشِي وعيش أولئك البؤساءِ من صلةِ النسب ، وتصرفت فيه بعضَ التصرف ، واختصرتُ بعض الاختصار ، ورأيتُ أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ، ورأيكَ الأعلى ؛ لأجمع فى ذلك بين خلالٍ ثلاث : أولها التيمنُ باسمك ، والتشرفُ بالانتماءِ إليك ، وثانيها ارتياحُ النفس وسرورُ اليراع برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرفُ مهرَ الكلام ، ومقدار كدِّ الأفهام ، وثالثُها امتدادُ الصلة بين الحكمةِ الغربية والحكمةِ الشرقية ؛ بإهداءِ ماوضعه حكيمُ الغرب إلى حكيم الشرق .

فليتقدم سيدى إلى فتاه بقبوله ، واللهُ المسئولُ أن يحفظَه للدنيا والدين ، وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين » .

التوضيح

تعطينا النماذج السابقةُ من الرسائل فكرةً واضحة عن هذا اللون من النثرِ من حيث أغراضه ، وأنواعه ، وأسلوبُ كل نوع :

فالنموذَجُ الأول رسالة من الخليفةِ عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص ، يستحثه على المبادرة بإرسال الخراج .

وهى — على هذا — تتصل بشأْن من شئون الدولة ، هو الخراجُ أو (الضرائب) بالمفهوم الحديث . وهذا النوعُ من الرسائل الذى يتصلُ بتصريف أمور الدولة ، وإنجاز أعمالِها ، وقضاءِ مصالحِها

يسمى الرسائل الديوانية أو الرسمية ، ومنه الرسائل التى تصدر عن إدارات الحكومة ودواوينها إلى الأفراد أو الهيئات أو المؤسسات أو غيرها فى مختلف الأغراض .

وإذا رجعت النظر فى رسالة عمر رضى الله عنه وجدت أنه قد بدأها بذكر اسمه واسم المرسل إليه مجردين من الألقاب ، ثم بالسلام وحمد الله .

انتقل بعد ذلك إلى عرض موضوع الرسالة تلاحظ أن الخليفة يصارح واليه ، فى لغة واضحة دقيقة لاتحتمل التأويل ، متعجبا من إبطائه فى حمل الخراج ، بالرغم من كثرة ما كتب إليه فى ذلك ، ومن أن ردوده على رسائل الخليفة فى ذلك كانت ملتوية غير مستقيمة ، ويصارحه كذلك بأنه لا يرضى منه إلا بالحق البين ، وبأنه لم يختره واليا على مصر ليستغلها لنفع نفسه وأهله ، بل لما عرف فيه من حسن السياسة ، ولما رجا من قدرته على توفير الخراج ، ثم طلب منه فى نهاية الرسالة التعجيل بحمل الخراج إليه ؛ لأنه مال المسلمين ، والحاجة اليه شديدة ، ثم ختم الرسالة بالسلام .

وهكذا ترى أن أسلوب الرسالة أسلوب تقريرى ، يسيطر عليه المنطق ، ويعتمد على ذكر الحقائق بلغة واضحة دقيقة الدلالة ، بعيدة عن احتمال التأويل ، وعن التهويل والمبالغة ، مع مافيها من جمال . .

***

وانتقل إلى النموذج الثانى ، وهو رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب التى أوصى فيها الكتاب تجد نوعا آخر من الرسائل يختلف عن

الرسائلِ الرسميةِ أو الديوانية ؛ لأنه يدورُ حولَ علاقةِ الكاتبِ بغيره من الكتاب ، وحولَ القيم والمُثُل التى يحرِصُ على أن يتحلَّى بها إخوانُه من أرباب القلم ، ومثل هذا النوعِ من الرسائل التى يتناول صلاتِ الناس بعضِهم ببعض ، وأمور حياتهم وعواطِفهم على اختلافِ حالاتِها : من تهنئةٍ ، أو تعزيةٍ ، أو توصية ، أو عتاب ، أو تشوُّق .. أو نحوِها تسمى الرسائل الإخوانية .

وإذا أعدتَ النظر فى هذه الرسالةِ وجدتَ أن عبد الحميد قد بدأها بالبسملةِ ، ثم بقوله : (أما بعد) ، ثم بالدعاءِ لأهل صناعةِ الكتابة ، ثم انتقل إلى عرض الموضوع ، فضمنه الإشادة بمكانةِ الكُتَّابِ ، وشريفِ خصالهم ، وعظيمِ خدمتِهم للحكام ، ومؤازرتِهم لهم فى إصلاحِ الخلق ، وعمارة البُلْدان ، ودعا لهم بدوام النعمةِ والمزيد منها ، ثم أوضح مدى حاجتِهم إلى التمسكِ بجميع خلال الخير ، وخصالِ الفضل من : الحِلْم ، والفهم ، والإقدام فى مواضعِه ، والإحجام حيثُ ينبغى الإحجام ، ومن العفافِ ، والعدلِ والإنصاف ، وكتمان الأسرار ، والوفاءِ عند الشدائد ، والحكمةِ فى معالجة الأمور ، ووضعِها فى مواضعها ، وبعدِ النظر ، والتفكيرِ فى العواقبِ ، واتخاذِ الأهبة والعدة لمواجهةِ الأمور قبلَ ورودها .

كما أوضح ما ينبغى أن يحرص الكتابُ على التزودِ به من أنواع المعارف ، ووسائلِ الثقافة : من العلمِ بكتاب الله ، وعلومِ الفقه ، والفرائض ، واللغة العربية وآدابها ، وروايةِ الشعر ، وتاريخ العرب والعجم ، وعلم الحساب .

وفى ختامِ الرسالةِ نصحهم أن ينزِّهوا أنفسهم عن الصغائر ،

والسخف ، كما نصحهم بالتوادّ والتحابّ فى صناعتهم ، والتواصى بكلّ ما يرفعُ من شأنها .

وإذا عاودتَ النظر فى أسلوبِ الرسالةِ رأيتَ أن الطابعَ الأدبى يغلبُ عليها ؛ ففيها يبدو الاهتمامُ بانتقاءِ الألفاظ ، والتأنقُ فى صياغةِ العبارة ، والحرصُ على سلاستِها ، وانسيابِها ، وعلى الجرسِ الموسيقىّ للجملِ والتراكيب .

وقد استعان الكاتبُ على تحقيق ذلك بكثيرٍ من الوسائلِ الأدبية كبعضِ الصور الخيالية التى تعينُ على توضيح المعنى ، ونقل إحساس الكاتب ، كما فى جعله الكُتّابَ كأسماعِ الملوك ، وأبصارِهم ، وألسنتِهم ، وأيديهم ، وببعض المحسناتِ التى ترتبط بالفكرة مع التأثير الموسيقى كما فى الجناس ، والسجع الذى يظهر فى مواطنَ من الرسالة.

وفيها إلى ذلك اقتباسٌ واضحٌ من القرآن الكريم فى قوله : « فموقعكم من الملوك .. يبطشون » .

وهكذا ترى أن الرسالةَ قد انفسح فيها المجالُ لسِمات الأسلوب الأدبى وملامحه التى عرضناها عليك من قبل ؛ لأنها رسالةٌ إخوانية تتصلُ بالمشاعر الإنسانية والحالاتِ الوجدانية التى تجعلُها أدخلَ فى دائرةِ الأدب ، وأكثر تقبلاً للملامح الأدبية فى الأسلوب .

***

فإذا انتقلتَ إلى النموذج الثالث رأيتَ رسالةً من الرسائل الإخوانية أيضا يُهدى فيها حافظ إبراهيم إلى الإمام الشيخ محمد عبده الجزءَ الأولَ من كتاب « البؤساءِ » الذى نقله عن الفرنسية . وقد بدأ

الرسالة بالثناء على الأستاذ الإمام ، ثم بيان موضوع الكتاب ، والسبب الذى دفعَ إلى تأليفه ، وإلى تعريبه ، وإلى إهدائه الى الأستاذ الإمام.

وفى ختام الرسالة رجاه أن يقبل هديته ، ودعا له أن يحفظه الله للدين والدنيا ، ودعا لنفسه أن يُوَفَّقَ إلى إتمام نقل الكتاب .

وفى الرسالة — كما ترى — يبدو حرصُ الكاتب على انتقاءِ الألفاظ وحسن تأليف العبارة ، وبنائها على المزاوجةِ ، والترسل ، والسجعِ أحيانا ، مع العناية بالفكرة والوضوح فى عرضها .

***

الخلاصة :

مما تقدم يتبين لك :

أولا : أن الرسائل مكاتبات تساق فى الأغراض المختلفةِ التى تتطلبُها شئونُ الحياة .

ثانيا : الرسائل قسمان :

(ا) رسائلُ تتناول المسائلَ المتعلقةَ بالحكم ، وتصريفِ شئونِ الدولة ، وتسيير أعمالِها ، كالمكاتبات التى تصدرُ عن دواوين الحكومة والهيئاتِ والمؤسسات وغيرِها ، والمكاتبات المتبادلة بين الدولِ فى مجالاتِ السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها . ويطلق على هذا النوع من الرسائل اسم الديوانية أو الرسمية .

(ب) رسائل تتناول العلاقاتِ الإنسانيةَ الخاصة بين الأفراد ، وتصور عواطفَهم فى حالاتِ التهنئة ، أو التعزية ، أو التوصية ، أو الشكر ،

أو الشوق ، أو العتاب ، أو الاعتذار ، أو النصحِ ، أو الإهداء ، أو غيرها . وهذه هى الرسائلُ الإخوانية .

ثالثا : لكلٍّ من هذين النوعين من الرسائل خصائصُه الفنية التى تُستَمَدُّ من طبيعة موضوعه ، ومن الغرضِ الذى يساقُ من أجله .

(ا) فالرسائلُ الديوانيةُ ليست أصلا مجالاً للعواطف والمشاعرِ الذاتية ؛ ولذا كان من الخصائصِ الشائعةِ فى أسلوبها مايأتى :

١ ـ الوضوحُ وسهولةُ التعبيرِ ؛ ليتسنّى فهمُ المقصود منها .

٢ ـ الدقة فى اختيار الألفاظ والعبارات ذاتِ الدلالة الصريحةِ المباشرة .

٣ ـ الاعتمادُ على الحقائقِ والوقائع ، وعلى الأرقام والإحصاءات إذا اقتضى الأمر .

٤ ـ البعدُ عن الخيالِ والمبالغةِ والتهويل .

ومع ذلك حفل الأدب العربى بكثيرٍ من الرسائل الأدبية التى صدرت عن دواوين الإنشاء ، وكانت ميدانا لأرباب الفصاحةِ ، والبيـان فى العصرين : الأمويّ والعباسى ، وفى العصر الحديث .

(ب) وأما الرسائلُ الإخوانية فهى أدخلُ فى نطاق العمل الأدبى ؛ لأنها حديثٌ يدور حول العلاقات الإنسانية وألوان العواطف ؛ ولهذا جاءَت صدًى لمشاعر أصحابها ، وحملت طابَعَ كلٍّ منهم فى أسلوب التعبير .

ولهذا أيضا كان فيها متسع لكل المقومات الفنية التى تميز الأسلوب الأدبى .

هذا وللرسائل بنوعيها أصول شكلية تجب مراعاتها ، كملاحظة الألقاب الخاصة بالمكتوب إليهم ، وأساليب البدء والختام ، وغيرها من الأوضاع التى يجرى بها العرف ، والتى تختلف من عصر إلى عصر .

رابعا : أجزاء الرسالة كأجزاء الخطبة : المقدمة ، والموضوع ، والخاتمة .

خامسا : تختلف الرسالة عن الخطبة فى أن عامل الأناة والتأنق أساسي فيها ، على حين أن الخطيب قد يغير ويبدل فى ضوء مفاجآت الموقف الذى يواجهه .

تمرينات

(١)

للجاحظ من رسالة (المعاد والمعاش) التى كتب بها إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى داود :

« إنى عرفتك — أكرمك الله — فى أيام الحداثة ، وحيث سلطان اللهو المخلق للأعراض أغلب على نظرائك ، وسكر الشباب والجدة المتحيفين(١) للدين والمروءة مستول على لداتك ، فاختبرت أنت

(١) المتحيفين : تحيفه انتقصه .

وهم يسطة المقدرة ، وحمِيّا (١) الحداثة ، وطول الجِدة (٢) مع ماتقدمتهم فيه من الوسامة في الصورة ، والجمال في الهيئة ، وهذه كلها أسبابٌ توجب الانقياد للهوى ، ولُجَجٌ من المهالك لا يسلم منها إلا المنقطعُ القرين في صحة الفطرة وكمال العقل ، فاستعبدتهم الشهواتُ حتى أعطوها أزمّةَ (٣) أديانهم ، وسلّطوها على مروءاتهم ، وأباحوها أعراضَهم ، فآلت بأكثرهم الحالُ إلى ذل العُدْم ، وفقد عِز الغنى فى العاجل ، مع الندامة الطويلة والحسرة فى الآجل .

وخرجت نسيجَ وحدك (٤) ، أوحَدِيا فى عصرك ، حكّمْتَ وكيلَ الله عندك — وهو عقلك — على هواك ، وألقيت إليه أزمّةَ أمرك ، فسلك بك طريقَ السلامة ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة .. »

اقرإ الجزءَ السابقَ من رسالة الجاحظ ، ثم أجب عما يأتى :

(ا) ما موضوعُ هذه القطعة من الرسالة ؟

(ب) لخّص الافكارَ الرئيسية التى تضمنتها .

(ج) مانوع هذه الرسالة ؟ بين السبب .

(د) تحدث عما ترى فى القطعة من مميزات الأسلوب من حيث : اختيارُ اللفظ ، وتأليفُ العبارة ، والإيقاع الموسيقى .

(هـ) وضح من القطعة بعضَ الصور التى استعان بها الكاتبُ على أداء فكرته وشعوره ، وبين رأيك فيها من الناحية الفنية .

---

(١) حميّا الحداثة : سورتها .

(٢) الجدة : الغنى .

(٣) أزمة : جمع زمام ، وهو ما تقاد به الدابة .

(٤) نسيج وحدك : فريدا .

(و) بماذا تحكمُ على أسلوبِ الجاحظ فى ضوءِ هذه القطعة ؟

(٢)

كتب عمرو بن مسعدةَ إلى المأمون :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قِبَلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسنِ ماتكونُ عليه طاعةُ جند تأخرت أرزاقهم ، وانقيادُ كفاة تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم (١) » .

أجب من الرسالة السابقة عما يأتى :

(ا) ما مضمونُ هذه الرسالةِ ؟ وما نوعها ؟

(ب) قال المأمونُ فى التعليق على هذه الرسالة .

« وجدتُ كتابا نظيرَ ماسمعتُ الرشيد يقوله فى البلاغة : البلاغة التباعد عن الإطالة ، والتقربُ من البغْيةِ ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثيرِ من المعنى » .

بماذا تستدلُّ من نصِّ الرسالة على صحةِ هذا التعليق ؟

(ج) لماذا حَسُنَ الإيجاز فيها ؟

(٣)

من رسالة للشيخ حمزة فتح الله الى أحد الفضلاءِ يطلبُ وده :

« ألا وإن محاسنَ السيد الأجلِّ لما سارت بها الركبان ، وأثنى

---

(١) الالتياث : الاختلاط .

عليها كل لسان ، مابين أخلاق أبهى من الروضِ النضير ، وأعراق (١) أشهى من عذيبِ النمير (٢) ، قد احتلت من فؤادى — لا أقولُ منزلا رحيبا ولا واديا خصيبا — بل منزلةً شماءَ (٣) ، ودارةً (٤) علياءَ ، وأوجا (٥) بطوالعها السعيدة يَسعَدُ ، ويلوح بها من ذكراه كلَّ حين فرقد (٦) ، فلم أنشَب (٧) أن قدَّمتُ كتابى هذا لمولاى بين يدى اللقاءِ عليه ، إن يسمح به الزمان ، وتشمرٌ عنه الليالى والأيام .. »

***

اقرأْ هذه الفقرةَ من الرسالة ، ثم أجبِ عما يأتى :

(١) من أىِّ نوعى الرسائل تُعَدُّ هذه الرسالة ؟

(ب) وضح ماترى فيها من السماتِ الفنيةِ لأسلوبه ؟

(ج) هل يُعجبُك أسلوبُ هذه الرسالة ؟ بيِّن سببَ ماتقول .

---

(١) الاعراق : المراد الصفات والطباع .
(٢) عذيب : تصغير عذب ، والنمير : الماء الكثير .
(٣) شماء : عالية .
(٤) الدار : والمراد المنزلة والمكانة .
(٥) الأوج : العلو .
(٦) الفرقد واحد الفرقدين ، وهمـا نجمان قرب القطب الشمالى .
(٧) لم انشب : لم ألبث .

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧/٢١٩٩
٢٢٠٠٠٠ نسخة ٧٧/١٩٧٨

مطابع دار الهلال بالقاهرة

جمهورية مصر العربية
الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية

الرقم المرحلي للكتاب

١٤/٤

طبعة ١٩٧٧

مطابع دار الهلال